

میںمائیل بولفاکوف

# مذکرات طیب شاب

ترجمة وتقديم  
د. بخار مرزفی

روایات عالیة « ٦٢ »

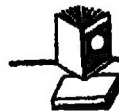


الشيخ الفقيه زهير المحمدي

منحائيل بولغاكون

# مذكرات طيب شاب

ترجمة وتقديم  
د. بخشان مرقضي



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب :

---

**МИХАИЛ БУЛГАКОВ**  
**ЗАПИСКИ ЮНОГО ВРАЧА**

---

مذكرات طبيب شاب / ميخائيل بولغاكوف ؛ ترجمة وتقديم فسان مرتضى ٠ -  
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ ٠ - ١٤٩ ص ؛ ٢٥ سم ٠ -  
( روايات عالية ؛ ٦٢ ) ٠

١ - ٨٩١٧٣ د ب و ل م ٢ - العنوان ٣ - بولغاكوف  
٤ - مرتضى ٥ - السلسلة  
مكتبة الأسد

---

الإيداع القانوني : ع - ٢٠٥٣ / ١١ / ١٩٩٧

روايات عالمية

« ٦٢ »





## مقدمة

ولد الكاتب الروسي ميخائيل أفانا سيغيتش بولفاكوف عام ١٨٩١/ في مدينة كييف ، في بيت تري بحياته الروحية والثقافية والفنية ... فقد كان أبوه أفاناسي إيفانوفيتش بولفاكوف استاذاً في الأكاديمية العلوم الروحية في كييف ، عالماً باللغات ومؤرخاً مقارناً للأديان . وكانت أمه فارقاراً ميخائيلوفنا مدرسة مثقفة ثقافة دينية وفنية وموسيقية عالية .

لم تدم للطفل ميخائيل أيام البلهنية والنعيم ، فقد توفي أبوه عام ١٩٠٧ / وهو لما بزل تلميذاً على مقاعد الدراسة ، فاضطرت أمه الى العمل ، وكابدت الأسرة ضنك العيش ، لكنها استطاعت ، على الرغم من قلة الموارد ، أن ترسل ميخائيل الى الجامعة عام ١٩٠٩ / ليدرس في كلية الطب ويتخرج فيها عام ١٩١٦ / بدرجة امتياز .

التحق الطبيب الشاب فور تخرجه / ١٩١٦ / بالجهة الجنوبية الغربية متطوعاً في الصليب الأحمر ، ومارس هناك عند خط النار ، مهنته الإنسانية أول مرة ، فعالج المرضى وداوى الجرحى ، وأجرى العمليات الجراحية البسيطة ... وفي نهاية العام نفسه عين طبيباً في إحدى قرى قضاء ( سمولينسك ) ، فرحل الى هناك ليقضي في الريف النائي عاماً كاملاً يعاني من الوحشة والغربة ، ومن الطبيعة القاسية ويناضل مناضلة لا هوادة فيها الجهل والتخلف والسحر والغيبيات والأمراض المتفشية والسارية ، ويختبر معارفه العلمية وقدراته الطبية ورباطة جأشه ... كان عاماً صعباً وخصباً وصفه الكاتب فيما بعد في قصصه « مذكرات

طبيب شاب » . واثناء إقامته في ريف ( سمولينسك ) النائي هبت رياح الثورة في موسكو ومدن روسيا الكبرى لكنه لم يستطع المشاركة فيها لانقطاع قريته عن العالم المحيط بها ، بل إنه لم يستطع متابعة اخبارها في الصحف إلا الصحف نفسها لم تكن تصل الى هناك .

عاد بولفاكوف في نهاية عام /١٩١٧/ الى كييف ، وعرج في طريقه على موسكو وساراتوف ، وفي اثناء توقفه في موسكو رأى ما فعلته الثورة والحرب الاهلية فكتب الى اخته ناديا في اليوم الأخير من عام / ١٩١٧ / : « ... منذ زمن قريب ، اثناء سفري الى موسكو ثم الى ساراتوف حصل أن رأيت كيف تهجم الجموع الفقيرة المتحطمة للزجاج في القطارات ، ورأيت كيف يضربون الناس ، رأيت البيوت المهتمة والمحترقة ... في موسكو رأيت طواير الجوع مصطفين عند الحوائث ... رأيت الجنود المثيرين للشفقة ... » . لكن الحياة في كييف لم تكن افضل ، فقد عانت عاصمة أوكرانيا ، وعانى بولفاكوف معها ، من الحرب الاهلية الدامية التي نشبت بعد ثورة اكتوبر ، وشاركت فيها الفئات المتصارعة كلها : الجيش الأحمر ، والحرس الأبيض والقوميون (الببلورا ) ... الخ كما عانت من الاحتلال الألماني ...

ومما زاد في معاناة الاديب ميخائيل بولفاكوف أنه لم يكن صاحب موقف واضح يدافع عنه ، ولم يكن ميالا لجهة من الجهات المتصارعة . غير أنه وضع في ثورة الصراع وإن لم يكن له يد في اختياره . ذلك أن أسرته كانت ميالة بحكم ثقافتها الدينية والليبرالية وبحكم موقعها البرجوازي الى البيض فانضم اخواه الى صفوف مقاتلي الحرس الأبيض ، أما هو فلم يجد في دموية البيض أو القوميين ما يشجعه على الانتماء لهم ، كما أن البلاشفة لم يكونوا أملة المنشود ولاسيما سلوكهم الذي اختاروه للوصول الى السلطة .

تابع بولفاكوف عمله الطبي بعد أن ثبتت البلاشفة موقعهم في أوكرانيا عام /١٩١٩/ وبدأ في الوقت نفسه بتدوين قصصه ( مذكرات طبيب



شاب ) ، لكنه لم يستمر طويلاً في عمله الطبي ، إذ وجد أن الأدب هو طريقه الوحيدة في هذه الحياة ، فالتحق إلى موسكو عام /١٩٢١/ ليعمل في صحفها ومسارحها . . . وهناك بدأ بكتابة رأئعته ( الحرس الأبيض ) التي أنجزها عام /١٩٢٤/ ، وهي تتحدث عن الحرب الأهلية وعن هزيمة البيض في أوكرانيا ، ونشر قصتيه الهجائيتين الساخرتين ( كتابات على أطراف الأكمام ) و ( انشودة الشيطان ) . وكتب قصته المتميزة ( قلب كلب ) التي تسخر من حياة البيروقراطية ، وتهجو حياة الزيف والنفق ، لكن هذه القصة بقيت مخطوطة في أرشيف المؤلف حتى عام /١٩٨٧/ . وشرع في عام /١٩٢٨/ بكتابة رأئعته الخالدة ( المعلم ومرغريتا ) التي استمر في كتابتها حتى آخر لحظات حياته عام /١٩٤٠/ .

لم تكن قصص ميخائيل بولفاكوف ورواياته وراء شهرته الواسعة التي حصل عليها في منتصف العشرينات ، بل كانت هذه النهرة وليدة المسرح الذي وهبه بولفاكوف جزءاً كبيراً من حياته واهتماماته الإبداعية . فقد كتب للمسرح عدداً من الأعمال أهمها مسرحيته ( أيام آل توربين ) التي عرضت على ( مسرح موسكو الأكاديمي الفتي ) فلاقت رواجاً منقطع النظير ، حتى إن ستالين نفسه كان حريصاً على مشاهدتها غير مرة ، ومسرحيته ( شقة زويا ) و ( الهروب ) و ( الجزيرة القرمزية ) . . .

كان بولفاكوف رجلاً معاكساً للتيار ، فلم يابِه للسلطة ومناصبها وأوسمتها ، وترك لروحه العنان لتعبر عن مأساة البؤساء والمبطلين والفنانين والشرفاء ، ولتفضح بسخرية لاذعة وهجائية شديدة زيف المتسلطين والمنافقين . لذا لم يرق أدب بولفاكوف ومسرحه لذوي الشأن فمُنِع من نشر أعماله وعرض مسرحياته وأوقِفَ عرض ( الجزيرة القرمزية ) عام /١٩٢٧/ ، فانتهد بذلك حياته الأدبية العلنية التي لم تستمر إلا سبع سنوات ، وانقطع دخله بعد أن طرد من عمله فانسدَّت الأفاق أمامه ، ووصل إلى حد اليأس ، فأحرق مخطوط ( المعلم ومرغريتا ) عام /١٩٣٠/ ، وحاول غير مرة أن يهاجر خارج البلاد لكنه

لم يوفق الى ذلك ... فكتب رسالة الى الحكومة السوفياتية ، ثم كتب أخرى إلى ستالين للسماح له بالهجرة... وجاء رد ستالين عبر الهاتف، وبقي الكاتب في وطنه يعمل موظفاً في المسرح ويسهر الليالي الطوال يهذب روايته ( المعلم ومرغريتا ) .

إن أهم ما يميز فنّ ميخائيل بولغاكوف هو الارتباط الوثيق بين سيرته الذاتية وإبداعه الأدبي . فقد كانت حياته الشخصية مصدراً لإلهامه وموضوعاً لإبداعه في وقت واحد ؛ حتى إن كل عمل من أعماله يصور مرحلة معينة من مراحل حياته ، لتشكل أعماله في مجموعها سيرته الذاتية الواقعية الفانتازية السحرية التي لا تشبه السير إلا في بعض مضائها .

أراد بولغاكوف أن يترك للخلف شهادة فنية عن الكوارث التي عاشتها روسيا والتي كان شاهداً عليها ومشركاً فيها بغير إرادته ، فكانت شهادته نابغة من رؤيته الخاصة ، وهي رؤية لم تكن ملتزمة إلا بالفن الاصيل والأخلاق السامية ؛ رؤية ساخرة متهمكة تنتقد اخلاقيات البيروقراطية الزائفة وتعري انتهازية السياسة ، وتنزع عنهم زينتهم الرسمي واوسمتهم وربطت أصنافهم ليظهروا من داخلهم عارين أقزاماً أمام العيون ...

لم يكن بولغاكوف ملتزماً بحزب أو سياسة ، لكنه كان فناناً وإنساناً صادقاً ، يضع فنه وإنسانيته فوق كل التزام ، تحدوه أغنية الضمير النقي ، ولا يغريه الجاه أو النشب ...

ولئن غفل الناس عن إبداع بولغاكوف بسبب منع تداول أعماله في الاتحاد السوفياتي بين عامي ١٩٢٧ - ١٩٨٥ ، فانهم الآن عادوا يقدرّون هذا اللبدع ويعطونه حقه بعد أن راجت أعماله رواجاً مذهلاً في بلدان كثيرة من العالم . ومن أهم أعماله الأدبية :

## الروايات :

الحرس الأبيض : كتبها المؤلف عام ١٩٢٢ - ١٩٢٤ طبع ١٣ باباً  
منها في مجلة ( روسيا ) عام ١٩٢٥ . تم طبعت كاملة في باريس عام  
١٩٢٧ . ولم تطبع كاملة في روسيا إلا عام ١٩٨٨ .

المعلم ومرغريتا : كتبها المؤلف عام ١٩٢٨ - ١٩٤٠ . ولم تطبع  
إلا عام ١٩٧٣ .

مذكرات مرحوم أو رواية مسرحية : طبعت أول مرة في مجلة  
( العالم الجديد ) ١٩٦٥ . ثم طبعت مستقلة عام ١٩٧٣ .

## القصص :

انشودة الشيطان : طبعت عام ١٩٢٤ .

البيضات القاتلة : طبعت عام ١٩٢٥ .

قلب كلب : كتبها المؤلف عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ . وطبعت عام  
١٩٦٨ في إنكلترا وألمانيا . ولم تطبع في روسيا إلا عام ١٩٨٧ .  
الى صديق سري : لم تطبع إلا عام ١٩٨٧ .

## القصص القصيرة :

مغامرات الدكتور العجيبة : طبعت عام ١٩٢٢ .

التاج الأحمر : طبعت عام ١٩٢٢ .

القصة العسبانية : طبعت عام ١٩٢٣ .

مذكرات على الأكام : طبعت عام ١٩٢٢ - ١٩٢٤ .

المورفين : طبعت عام ١٩٢٧ .

\* \* \*

« مذكرات طبيب شاب » مجموعة قصصية تعكس فنياً تجربة حياتية ومهنية عاشها بولفاكوف في مشفى الصليب الأحمر في الجبهة ، وفي ريف ( سمولينسك ) النائي ، لكنها ليست انعكاساً آلياً ، أو مذكرات بيوغرافية ... فقد ترك بولفاكوف لحظات التجربة تنتظر سنتين من الزمن لتختمر في ذهنه المتوقد واتخاذ شكلها الإنساني العام ، بحيث تصبح تجربة لكل طبيب مبتدئ في كل مكان ... لقد بدأ بولفاكوف بتدوين قصص هذه المجموعة عام ١٩١٩/ عندما كانت الحرب الأهلية في كريف على أشدها ... وبينما كانت دماء المأساة تسفك في الشوارع والأزقة ... كادت هناك دماء أخرى تقطر على طاولة الطبيب الجراح لتبشر ببرء المريض ، أو بولادة واحدة ، وهي عند بولفاكوف دماء الأمل والنشأة والمستقبل ... أما الرصاص الذي يقتل الأبرياء في الشوارع ، ويوجهه الإنسان نحو أخيه الإنسان فإنه يتحول تحت ريشة الفنان البديع إلى وسيلة للتخلص من الدثاب المفترسة التي نوشك أن تنقض على المزالج ، وتجهز على الطبيب والحوذي ( العاصفة الثلجية ) .

تتحدث قصص هذه المجموعة عن الخطوات الأولى التي يخطوها طبيب شاب في ممارسة مهنة الطب ، إنها خطوات مغامرة وبريئة ، شجاعة ومتردة في وقت واحد . بطلها الرئيس طبيب شاب تخرج حديثاً من مقاعد الدراسة ، ورماه قدره بعيداً في الريف النائي وسط غابات البتولا اللامتناهية والثلوج البيض التي تغمر الكون وتحيل الأشياء إلى لون واحد ... رماه القدر ليضع تفاعله ومثاليته الأخلاقية ، وشبابه ومرحه ، وقلة خبرته الحرفية في مواجهة صعوبات المجهل والتخلف والسحر والنسوة ... فما كان عليه إلا أن يجابه ويخوض حرباً ضروساً ، يثبت فيها وجوده وأحلامه ، ويدمر خصميه العنيدين : المجهل والمرض .

تحكي قصص المجموعة حكاية المثل الأخلاقية الرفيعة ؛ حكاية البهجة بائبات الذات ، والفرح بتجاوز قلة الخبرة والتجربة ، والانتصار على المرض ، والحيلولة دون موت إنسان ما ؛ تحكي عن روح الشاب المثالي المتفائل المنتصر دائماً ، الذي يرى كل شيء جميلاً ومثالياً ... كل الوجوه الإنسانية في هذه القصص فاتنة خلابة « تقطر جمالاً مدهشاً » ؛ فالطفلة التي أنقذها طبيبنا الشاب من الاختناق بمرض الخانوق كانت خارقة الجمال حتى إنه نسي عندما رآها علم العمليات الجراحية ؛ نسي وحشته ووحده ، والجميل الجامعي الذي يثقل كاهله ، نسي « كل شيء تماماً أمام جمال هذه الطفلة الأخاذ ... كان شعرها على طبيعته مجعداً كخواتم كبيرة ، ولونها كلون الحنطة الناضجة ، وعيناها واسعتان زرقاوان .. وخذأها كخدي دمية ... حتى اللاتكة لم ترسم بهذا الشكل » . أما تلك التي وقعت في محببة الكتان ، والتي اضطرت طبيبينا الشاب إلى إجراء عملية البتر لرجلها ، فقد « ذوى خلف وجهها الأبيض الذي يشبه الثلج الساكن جمالاً حقيقي نادراً لا يرى ثلثه مثله دائماً ، بل قلما يرى مثله » .

وبجاوز الجمال في عالم بوالفاكوف القصصي الوجوه الإنسانية ليشمل الأشياء من حوله فيصبح كل شيء جميلاً : المصباح المتأليء عند البوابة ، وشقة الطبيب بما فيها من مكتبة وآرائك وموقد هولندي ... حتى الطبيعة القاسية المتوحشة ، التي كثيراً ما يعابها الكاتب لقسوتها ، تتحول في أحيلان كثيرة إلى ذات إنسانية رائعة تشعر بالقلق والأسى وتشاوكم الطبيب متساعره : « كان الهواء يأتي للقائنا عذباً ... ونحن نسمع هدير الماء ، هدير الماء المرح الذي يندفع عبر دعامات الجسر الخشبية ... استقبلنا الوليد الذكر ، استقبلنا روحاً حية وأنقذنا الأم ... » .

كل ما يحيط بالطبيب الفتى جميل وإيجابي ، فالمرضى لهم عيون ساحرة وواسعة ... والعالم الطبي مثالي تماماً . فالمساعد والمرضات

- وحتى الحارس إيفوريتش - متحفزون دائماً ، منكرون للذات ، مستعدون للمساعدة والقيام بالواجب . أما الأطباء الذين يأتي على ذكرهم فهم متفوقون موهوبون متميزون ( ليوبونتي وطبيب مشفى المدينة دو اللحية الصفراء ) ... كل شيء يؤدي الى النهاية السعيدة ، النهاية التي ينتظرها القارئ بسوق وتحفز . لكن بولغاكوف لا يوصلنا الى تلك النهاية قبل أن يجول معنا في عوالمه الساحرة وينقلنا من غرفة الاستقبال الى العنبر ثم الى غرفة العمليات فغرفة الطبيب فالمكتبة ... إنه عالم واقعي . يسي بصدق المؤلف الفني الناتج عن صدق التجربة الحقيقية ؛ وحتى في تلك اللحظات التي لا يتفق فيها سياق القصص مع سيرة الكاتب الذاتية فإنه يوهنا بصدقه الفني الذي يصل إليه عبر تماسك القصة ووحدتها ، وجمال الوصف ودقته ، وسلاسة الأسلوب وبساطته ، حتى إنه يقودنا عبر الجبك المحكم الى المتابعة دون ملل حتى نصل الى الغاية والهدف .



كان من عادة ميخائيل بولغاكوف أن ينسخ مؤلفاته من دفتر الى آخر جديد ، ويقوم في أثناء ذلك بعمليات الحذف والإضافة والتصحيح والتنقيح ... وقد فعل ذلك مع هذه المجموعة مرة واحدة عام ١٩٢١/ - وذلك خلافاً لعاداته في الإكثار من المراجعة والتدقيق ، ولم يعد إليها إلا عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ عندما أخذ ينشرها منجمة في مجلتي ( البانوراما الحمراء ) و ( الباحث الطبي ) . وكانت عملية النشر هذه هي الوحيدة لفصص هذه المجموعة إبان حياة المؤلف ، إذ لم تطبع ثانية إلا في منتصف الثمانينات عندما سمحت السلطات السوفياتية بنشر أعمال الأدباء الذين لم يكونوا في جانب السلطة .

ولأن المؤلف نشر الفصص منجمة ، ولم ينشرها كلاً متكاملاً ، بل لم يراجعها دفعة واحدة على ما يبدو ، فقد وقع في بعض الهنات التي

ما كان لها أن تكون لو تعامل مع هذه المجموعة بالحرص المعهود عنه في أعماله الأخرى .

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أخطائه في ذكر اسم المدينة ، واسم المستشفى ، وعمر الطبيب ، وأسماء الممرضات . . . ويمكن الإشارة في هذا المجال أيضاً إلى مشكلة ترتيب القصص ، إذ يحار الباحث أيها يضع أولاً ( الحنجرة الحديدية ) أم ( المنشقة ذات الديك ) ، فكل واحدة تصلح أن تكون قصة افتتاحية ، كما يحار في ترتيب العنصر الأخرى !!

إن مثل هذه الهنات الطفيفة لا تؤثر تأثيراً مباشراً في جوهر النصوص ، لكنها تؤكد أن التعديلات التي أجراها المؤلف بين لحظتي الكتابة الأولى والنشر لم تكن جوهرية ، وشاملة بقدر ما كانت جزئية وسطحية .

نشرت قصص المجموعة بين عامي / ١٩٢٥ - ١٩٢٦ / في مجلة الباحث الطبى الموسكوفية على النحو التالي :

١٩٢٥/١٢/ ٢	التعميد بالتحويل
١٩٢٦/ ١/٢٥	العاصفة الثلجية
١٩٢٦/ ٧/٢٧	العتمة المصرية
١٩٢٦/ ٨/٢٩	الطقس النجمي
١٩٢٦/ ٩/١٨	المنشفة ذات الديك
١٩٢٦/١٠/١٢	العين المفقودة

أما قصة الحنجرة الحديدية فقد نشرت في ١٩٢٥/٨/١٥ في مجلة ( البانوراما الحمراء ) اللينينغرافية .

وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على طبعة الأعمال المختارة في جزيين الصادرة في مينسك عام /١٩٩١/ .

د. غسان مرتضى





## الحجرة الحديدية

...وهكذا غدوت وحيداً ، يحيط بي ظلام تشرين الثاني ، وتلججه المتقلب الذي غمر البيت ، وريحه التي تصغر في المداخل . لقد عشت أعوامي الأربع والعشرين في مدينة كبيرة جداً ، وكنت أظن أن العواصف الثلجية تعوي في الألواح فقط ، لكن ، ظهر لي أنها تعوي على أرض الواقع أيضاً . المساءات هنا طويلة طولاً غير عادي ، ومصباح الطاولة الأزرق يعكس ضوءه في النافذة السوداء ، وأنا أحلم ، ناظراً في البقعة المضاءة على طرف يدي اليسرى : حلمت بمركز القضاء الذي يبعد عشرين فرسخاً من هنا ، تمنيت أن أهرب من مركزي هذا إلى هناك حيث يوجد كهرباء ، وأربعة أطباء يمكن للمرء أن يطلب النصيحة منهم ، وعلى كل حال ، فالأمر هناك ليس مخيفاً كما هو هنا ، لكن ، ليس ثمة فرصة للهرب ، بل يخيل إلي أحياناً أن الهرب ضرب من التخاذل ، لقد درست في كلية الطب من أجل هذا بالذات ..

... ماذا لو اتوا بالمرأة تعاني من حالة ولادة عسيرة ؟ أو بمرضى يعاني من فتق مختنق ؟ ماذا سأفعل ؟ أنصحوني من فضلكم ، فقد تخرجت منذ ثمانية وأربعين يوماً في كلية الطب بتقدير ممتاز ، لكن كلمة ممتاز تبقى على الورق ولن تساعد في عملية الفتق المختنق .

شاهدت مرة واحدة فقط كيف أجرى البروفيسور عملية جراحية للفتق المختنق ، لقد أجراها في حين جلست أنا في المدرج .. فحسب .. كان العرق البارد يبلل ظهري عندما كنت أفكر بالفتق المختنق . كنت أجلس كل مساء في وضعية واحدة لا أغيرها ، أعب الشاي وقد وضعت

تحت يدي كل كتبي العلمية حول عمليات التوليد ، وفوقها دليل « دوديرليان » الطبي الصغير ، وتناثرت عن يميني عشرات المجلدات المختلفة حول العمليات الجراحية مع الرسومات التوضيحية . كنت أتأوه ، ادخن وأشرب الشاي البارد .. وهكذا غفوت على هذه الوضعية ، اذكر تلك الليلة جيداً - ٢٩ تشرين الثاني - إذ استيقظت منذ خمس دقائق على صوت قرع شديد على الباب ، وها أنا ذا أحاول ارتداء بنطالي دون أن أحول يميني المتضرعتين من الكتب المقدسة للعمليات الجراحية ، سمعت صرير المزلزلاج في باب الفناء . أذناي أصبحتا مرهفتين على نحو مدهش . حدث ، على ما يبدو ، شيء أشد رهبة من الفتق ، وأشد تعقيداً من حالة الولادة العسيرة . لقد جاؤوا بطفلة مريضة إلى مشفى نيكولسك في الساعة الحادية عشرة ليلاً .

قالت لي المريضة بصوت خافت :

— طفلة مريضة تموت ... من فضلك يا دكتور الى المشفى ...

أذكر أنني قطعت الفناء ومشيت مهتدياً بضوء مصباح الكاز ، وعند مدخل المشفى نظرت كالمسحور إلى تلال المصباح .

كانت غرفة الاستقبال مضاءة ، والعناصر اللذين يساعداوني ينتظرون قدومي مرتدين ملابسهم البيضاء . هؤلاء هم : مساعدي دبمان لوكيتش ، إنه جد كفاء على الرغم من صغر سنه ، وقابلتان خبيرتان : ملريا نيكولايفنا وبراسكوفيا ميخائيلوفنا أما أنا فقد كنت شاباً في ربيعي الرابع والعشرين ، تخرجت في الجامعة منذ شهرين وعينت رئيساً لمشفى نيكولسك .

فتح مساعدي الباب بطريقة احتفالية فظهرت لي أم لكانها دخلت طرناً أو متزحلة بجزمته الشتوية حتى أن الثلج لم يكن قد علق على خملرها ، كان وجهها مجعداً وكانت تبكي بصمت ، وهي تحمل بين يديها

اللفة الزرقو وتصفر بشكل رتيب ، وعندما خلعت الأم معطفها وخمارها ،  
 حلت اللفة فشاهدت طفلة في عالمها الثالث ، ونسيت في تلك اللحظة  
 علم العمليات الجراحية كلياً ، ونسيت وحشني والجميل الجامعي الذي  
 يثقل كاهلي ، نسيت كل شيء تماماً أمام جمال هذه الطفلة الأخاذ .  
 بأي شيء يمكنني مقارنتها ؟ لا يوجد أطفال بهذا الجمال إلا على علب  
 الشوكولا فقط ، كان شعرها على طبيعته مجعداً كخواتم كبيرة ، ولونها  
 كلون الحنطة الناضجة ، وعينها واسعتان زرقاوان ، وخداها كخدي  
 دمية ، حتى اللاتكة لم ترسم بهذا الشكل . لكن ، ثمة كدر غريب  
 عشت في قاع عينيها ، وفهمت أن هذا الشيء الغريب هو الخوف — لم  
 يكن بإمكانها أن تتنفس ، « ستموت بعد ساعة » ، فهمت بشكل لا ريب  
 فيه ، فالتقبض قلبي انقباضاً موجعاً ...

لاحظت أن المجاري الهوائية تغور تحت حنجرتها ، وإن العروق  
 تنتفخ عند كل شهيق ، وأن اللون الوجيه الوردي النضر قد تحول إلى  
 ليكي باهت لقد فهمت معنى تغير اللون هذا وفهمت فوراً أين تكمن  
 المشكلة . وإن كان تشخيصي الأول صحيحاً تماماً ، والأهم من ذلك  
 كان متزامناً مع تشخيص القابلتين الملهتين الخبيرين : « الطفلة  
 مريضة بالخناق وقد تراكمت الأغشية المريضة في الحنجرة وعماً قريب  
 ستغلق تماماً ... » .

سألت مخترباً ضمت أفراد مجموعتي المتحضر :

— كم يوماً مضى على مرض الطفلة ؟

— اليوم الخامس — قالت الأم وهي تنظر إلي بعينيها الواجتمين .

إنه الخناق — قلت لمساعدتي دون اكتراث ، ثم قلت للأم :

— وأنت بأي شيء كنت تفكرين ؟ ماذا كنت تعتقدين ؟

مذكرات طبيب مـ٢

في تلك اللحظة دَوَّى من خلفي صوت باك :

— اليوم الخامس يا ابتاه ، الخامس ...

والتفتُ فرأيت عجوزاً هادئةً مدورةً الوجه ، تضع خماراً . « كم كان عظيماً لو لم تخلق هذه العجائز بتاتاً » ، وفكرت في الهاجس المحزن الذي ينذر بالخطر ، قلت :

— انت يا عجوز ، اسكتي إنك تعيقيني ، واعدت السؤال على الأم :

— بماذا كنت تفكرين منذ خمسة أيام ؟ ... ؟

دفعَت الأم بالطفلة الى العجوز بحركة تلقائية، وركعت على ركبتيها امامي ، ثم قالت وهي تضرب جبينها بالأرض :

— أعطها شراباً ... سأخنق نفسي اذا ماتت .

— انهضي حالا وإلا فإنني لن أتحادث معك بعد الآن .

نهضت الأم بسرعة تحفَّت ثورتها الواسعة بالأرض ، وتناولت الطفلة من العجوز وراحت تهددها . في حين أخذت العجوز تصلي متوجهة نحو أيقونة في الزاوية وتابعت الطفلة تنفسها الذي يشبه الفحيح .

قال مساعدي :

— كلهم يفعلون الشيء ذاته نا ... س ، ومال شارباه — هو يقولها — ميلا واضحاً .

— ماذا إذا ؟ هل ستموت ؟ سألت الأم وهي تنظر إليّ بغبط أسود . فأجبت بصوت خفيض وجازم :

— نعم ستموت .

عند ذلك تناوالت المعجوز طرف نوبها وأخذت تمسح عينيها ،  
بينما صاحت الأم بصوت أجش :

— أعطها ، ساعدها ، أعطها شراباً .

لقد عرفت جيداً ما ينتظرني ، فكنت حازماً :

— أي شراب أعطيتها ؟ التصحوني ، الطفلة تختنق ، حنجرتها  
مملوءة ، وأنت منذ خمسة أيام تعديينها على بعد خمسة عشر فرسخاً  
من هنا ، والآن ماذا تريدان أن أفعل ؟

قالت المعجوز ما جانب كتفي الأيسر بصوت مصطنع :

— أنت تعرف أكثر يا أبتاه . .

وعلى الفور شعرت حيالها بمقت شديد .

— أخوسي ، قلت لها ، واتجهت نحو مساعدي وأمرته أن يأخذ  
الطفلة .

أعطت الأم الطفلة للقابلة ، فأخذت تخفق بين يديها تريد على ما  
يبدو أن تصرخ ، لكن صوتها لم يخرج . وازدادت الأم الدفاع عن ابنتها  
فأبعدناها . . . واستطعت أن أنظر في ضوء المصباح الأساطع إلى بلعوم  
الطفلة . حتى تلك اللحظة لم أرَ في حياتي حالة خناق حادة أبداً ، إلا  
تلك الحالات البسيطة التي كنت قد نسيتهـا بسرعة . كان ثمة شيء ما  
منتفخ أبيض ممزق في بلعومها . تنفست الطفلة فجأة بعمق ، وبصقت  
في وجهي ، لكنني — لسبب ما — لم أخفق على عيني المشغولتين بأفكاري

قلت وأنا مدهوش من قدرتي الذاتية على تمالك الأعصاب :

— الأمر كذلك ، لقد تأخرتم ، الطفلة ستموت ، ولا يمكن مساعدتها إلا بشيء واحد هو العمل الجراحي .

وتوجست خيفة من قلبي هذا . لماذا فلتة ؟ لكنني لم أستطع إلا أن أقول . وخطرت في ذهني فكرة : « ماذا لو وافقوا ؟ »

سالت الأم :

— كيف هذا ؟

فشرحت لها :

— يجب علينا أن نفتح الحنجرة من أسفلها ، ونضع أنبوباً فظياً ، كي نتمكن الطفلة من التنفس عندئذ يمكن أن ننقل حياتها .

نظرت الأم نحوي نظرتها إلى مجنون ، وحجبت عني طفلتها بيديها .  
أما المعجوز فشرمت تقول :

— ماذا بك ، لا تعطيه إياها ، سوف يلدبجها ، ماذا بك ؟ إنها حنجرة ...

قلت لها بكره شديد :

— أخرجي أيتها المعجوز من هنا . ثم امرتي مساعدي قائلاً :

— رشوا الكافور !

لم تعطينا الأم الطفلة عندما رأت المحقنة ، لكننا سرحنا لها أن هذا ليس مخيفاً . فسالت :

— أيمكن لهذا أن يساعدها ؟

— لا ، لا يساعدنا إطلاقاً .

عندها عللت الأم للنحيب .

— كفي عن هذا ، قلت لها ، ثم نزعنا ساعة يدي وتابعت :

— أعطيك خمس دقائق للتفكير ، وإذا لم توافقني خلال هذه الدقائق الخمس فسأتخطى بعد ذلك عن هذا الأمر بنفسني .

فقلت الأم بحدة :

— غير موافقة .

وأضافت العجوز :

— لسنا موافقين .

— إذاً كما تريدان . قلت بصوت خفيض ، وفكرت « وهكذا ينتهي كل شيء » ، وهذا أسهل عليّ ، لقد قلت لهم ، عرضت عليهم أمام عيون «القبائل المدهوشة» لكنهم رفضوا ، فأنقذوني . وما كنت أنتهي من تفكيري هذا حتى صاح أحدهم من ورائي بصوت غريب .

— ماذا بكما ، هل جننتما ؟ ما معنى رفضكمه ههنا ؟ أتقتلان الطفلة ؟ وافقا ... كيف لا تشفقان عليها ؟

— لا ... صرخت الأم من جديد .

فكرت في نفسي « ماذا أنا فاعل ؟ قد اذبح الطفلة » . لكنني قلت قولاً مخالفاً :

— هيا بسرعة ، بسرعة ، وافقا وافقا . لقد بدأت أظفارها تميل  
الى الزرمة .

— لا ، لا ، لا ...

— إذا خذوهما الى العذر لتجلسا هناك .

فأخذهما عبر البحر شبه المعتم . . وسمعت بكاء المرأة وصغير  
الصغيره . وبعد ذلك عاد مساعدي لينقل إليّ موافقتهم .

— وافقتا . .

تحجر كل شيء في داخلي ، لكنني قلت بشكل واضح :

— عفوا الموضع والمقصات والكلايات بسرعة . . .

بعد دقيقة قطعت الفناء مسرعا ، حيث كانت الزوبعة الثلجية تمر  
مسرعة تضرب الوجه كالتيطان . وركضت الى غرفتي حاسبا الدقائق ،  
فتناولت كتابا وقلبت صفحاته فوجدت رسما توضيحيا يصور طريقة  
شق الرغامى . كان كل شيء واضحا في الرسم وكانت الحنجرة مفتوحة  
بسهولة والسكين مغروزة في الرغامى .

عكفت أقرا النص دون أن أفهم شيئا ، إذ كانت الكلمات تقفز من  
أمكنتها أمام عيني بشكل غريب . أنا ، لم أرَ في حياتي كيف يجرون  
جراحة الرغامى ، « آه لقد فات الأوان » قلت في نفسي وأنا انظر باكتئاب  
على ضوء المصباح الأزرق في الصورة الواضحة أمامي . وشعرت أن  
عملا صعبا ومخيفا قد هبط على رأسي . ثم عدت أدراجي الى المنفى  
دون أن لاحظ الماصفة في الفناء ، كان المظلام دامسا في غرفة الاستقبال .  
جاءت العجوز بتنورتها الملفوفة ، فالتصقت بي وأخذت تشكو ناشجة .



— 'بناته .. كيف يكون الامر كذلك؟! كيف سنفتحون حنجرة  
الطفلة؟ اويغفل هذا؟ .. لقد وافقت ، إنها امرأة غبية ، أما أنا فلست  
موافقة ، أقبل العلاج بالشراب لكنني لن أسمح بتسحق حنجرتها .

— لتخرج هذه العجوز من هنا . صرخت ، تم أضفت وأنا في سورة  
الغضب : أنت الغبية ، أنت ذاتك ، أما هي فذكية ، إضافة إلى ذلك  
فإن أحداً لم يسألك . أخرجوها .

طوقت القابلة العجوز ثم دفعتها خارج الغرفة .

قال مساعدي فجأة :

— كل شيء جاهز .

دخلنا الى غرفة العمليات الصغيرة ، وما كدت أعبّر العتبة حتى  
رايت عبر الستائر الادوات الالامعة ، والمصباح المبر ، وغطاء الشمع .. .

وخرجت المرأة الاخيرة الى الام التي استطعنا انتزاع الطفلة من بين  
يديها بصعوبة ، فسمعت صوتاً مبحوحاً يقول :

« الزوج غير موجود ، إنه في المدينة ، سيأتي وسيطعم بما فعلت ،  
سيقتلني » .

— سيقتل ، كررت العجوز وهي تنظر إلي نظرة مخيفة .

قلت امرأة :

— لا تدعوها تدخلان غرفة العمليات .

اصبحنا وحدنا في غرفة العمليات ، الطاقم وأنا والطفلة لبدكا .  
كثفت الطفلة جالسة على الطاولة عذرية . تبكي بلا صوت . مددوها على  
الطاولة . وغسلوا راسيتها ، ثم مسحوها باليود .

تناولت الموضع ، وفي تلك اللحظة فكرت : « ماذا أنا فاعل » ، كان كل شيء هادئاً في غرفة العمليات . جرحت بالموضع الحنجرة المريضة المنتفخة جرحاً عمودياً . لم تنزف نقطة دم واحدة ، ثم مررت بالموضع على الأنسجة الرخوة البيض التي كانت تفصل بين شقي الجلد فلم ينزف الدم أيضاً في هذه المرة ، وبينما شرعت أقص الشاش بمقص منلوم اخذت اتذكر بعض رسومات الاطالس الطبية تذكراً بطيئاً . عند ذلك اندفع الدم القاتلي من أسفل الجرح ، وغمر ، بلمح البصر الجرح كله وسال على الرقبة . فآخذ مساعدي يمسح الدم بقطع الشاش ، لكن النزف لم يتوقف ، حاولت أن اربط بين ما كنت رأيته في الجامعة وبين الحالة التي أمامي ...

أخذت اضغط طرف الجرح بالملقط لكن دون نتيجة . أصابني البرد ، وإيتل جيبني . اسفنت بحسرة لأنني انفسبت إلى كلية الطب ولأنني اتيت بنفسي إلى هذه المجهل . وبياس شديد غرزت الملقط بشكل اعتباطي في مكان ما قرب الجرح ، وضغطت ، عندها توقف النزيف ، فجففنا الجرح بقطع الشاش ، فظهر لي نظيفاً لكنه غير مفهوم البتة . لم يكن ثمة وجود للرغامي في أي مكان ، أما الجرح الذي أحدثته فلم يكن له شبه في أي رسم توضيحي . مرت دقيقتان أو ثلاث ولأنا أقوم بشكل آلي لا واع بغرز الموضع مرة والملقط مرة تالية باحثاً عن الرغامي وفي نهاية الدقيقة الثانية ينسب من العثور عليها .

« إنها النهاية ... فكرت - لماذا فعلت هذا ؟ كنت استطيع ألا أعرض عليهم العملية ، وبذلك تموت ليديكا بهدوء في العنبر ، أما الآن فإنها ستموت بحنجرة مشقوقة ولن استطيع البرهنة بثبات أنها كانت ستموت على كل حال وأنني لم أضرها ... » .

مسحت القابلة جيبني بصمت . « أضع الموضع جانباً ، أقول لا أعرف ما أفعل بعد هذا ؟ » هكذا فكرت ، وقرأت لي عينا الأم ،

فأخذت المبيض من جديد وقرزته دون وعي في رقبة ليدكا بحدة وعمق  
فتباعدت النسيج البيض وظهرت امامي الرغامى ظهوراً مفاجئاً .

— الكلابات !! طلبت بصوت مبجوح .

ناولني مساعدي الكلابات ، فغرزت طرف الكلاب الاول في جهة  
والطرف الثاني في الجهة الاخرى وناولت واحداً لمساعدتي وبعدها رأيت  
شيئاً واحداً فقط حلقات الرغامى المصابة ، فغرزت المبيض الحاد فيها ،  
وصعقني ما رأيت إذ اندفعت الرغامى خارج الشق المحدث ، عندها  
أصيب مساعدي ، كما تها لي ، بالجنون ، فقد أخذ فجأة يقطع الكلاب  
من مكانه . تأوهت القابلتان من ورائي فرفعت عيني ، وفهمت ما الخطب:  
لقد بدا أن مساعدي قد أغمي عليه من جراء الانجاس الهوائي وانه يترك  
الكلاب الذي في يده فكاد يقطع الرغامى من مكانها . « كل شيء ضدي  
حتى القدر — وفكرت — يبدو الآن دون شك أننا قد ذبحنا ليدكا ، ثم  
استرسلت في التفكير وقلت لنفسي جازماً : حالما أعود الى البيت  
ساننحر ... » ، عندها رمت القابلية الاقدم ذات الخبرة الجيدة نفسها  
على مساعدي وتناولت منه الكلاب ، ثم قالت لي مطبقة بشدة على  
اسنانها :

— تابع يا دكتور .

سقط مساعدي على الأرض فارتطم محدثاً صوتاً ، لكننا لم نكتثر  
له . غرزت المبيض في الرغامى ثم زرعت فيها الأنبوبة الفضية ، فانزلت  
بحذق ، لكن ليدكا بقيت بلا حراك ولم يدخل الهواء الى مجراها التنفسي  
كما ينبغي ان يكون الامر . تنفست الصعداء وتوقفت ، لم يكن علي ان  
افعل شيئاً بعد هذا ، كنت اود ان اعتذر من شخص ما ، أو اعترف  
بطيشتي عندما قررت ان أنتسب إلى كلية الطب .

كان الصمت مطبقاً ، ورايت كيف كانت ليدكا تزرُق ، فرغبت أن  
الترك كل شيء وأبكي . وفجأة ارتعش ليدكا ارتعاشة غريبة وطرحت  
كالنافورة عبر الأنبوبة الأعشية المعتلة والدم المتخثر . فدخل الهواء إلى  
مجاريها التنفسية مصدراً صغيراً حاداً ، بعد ذلك أخذت الطفلة تنفس  
وتثن بصوت مرتفع . في تلك اللحظة نهض مساعدي شاحباً متعرقاً  
ونظر بغباء وخوف نحو رفة الطفلة وشرع بساعديني في إخطاة الجرح .

ورابت عبر الحلم ، وعبر غشاوة العرق التي غطت عيني وجهي  
القابلتين الفرحتين . فقالت لي إحداهما :

— لقد انجزت العملية إنجازاً رائعاً يا دكتور .

ظننت أنها تسخر مني فنظرت إليها بكآبة مقطباً حاجبي ، ثم  
فنجحوا الباب فدخل النسيم العليل ، وظهرت الأم في الباب على الفور ،  
كانت عيناها كعيني حيوان مفترس ، وسالتني :

— ماذا ؟

عندما سمعت رنين صوتها سال عرقي في ظهري ، وعندها فهمت  
ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن ليدكا ماتت على طاولة العمليات . لكنني  
أجبتها بصوت شديد الهلوع : — كوني مطمئنة ، إنها حية ، وستكون  
حية كما أتمنى ، لكنها لن تستطيع نطق أية كلمة قبل أن ننزع الأنبوبة  
الدا لتخلي .

وهنا شبت المعجوز من تحت الأرض راسمة علامة الصليب نحو  
ذضة الباب ، ثم نحوي ، فنحو السقف . لكنني لم أغضب منها في هذه  
اللحظة . التفت وأمرت أن يحقنوا ليدكا بالنافور . وأن يتناولوا على  
رعايتها ، ثم ذهبت إلى غرفتي عيز الغناء . كان المصباح الأزرق مضاء  
في غرفة مكثي . حيث يوجد « دوديرليان » وحيث تناثرت الكتب

هذا وهناك . اقتربت من الأريكة واضطجعت فوقها بملابسي ثم توقفت عن رؤية أي شيء مهما كان شأنه ، ونمت نوماً عميقاً حتى أنه لم أر أحلاماً .

مر شهر ثم آخر ، عاينت أمراضاً كثيرة كان بعضها مخيفاً أكثر من حنجرة اليدكا ، لقد نسيت تلك الحنجرة .

كان الثلج يغمر الكون ، وكان عدد المرضى المعالجين يرتفع يوماً بعد يوم . وذات مرة في العام الجديد دخلت امرأة إلى غرفة العيادة ، تسحب بيدها طفلة ملتحفة تشبه الصندوق ، تهلت عينا المرأة ، وعندما أنعمت النظر عرفتها .

— آ... ليديكا ، ماها ؟

— كل شيء على ما يرام .

لقد فكوا الضمادات عن رقبتها ، كانت خجلة وخائفة ، لكنني تمكنت على الرغم من ذلك من رفع ذقنها ومن النظر إلى رقبتها ، كان ثمة ندبة سمراء عمودية على الجيد الوردي ، وندبتان عرضيتان رفيفتان من اثر الخيلطة ، قلت :

— كل شيء على مايرام تستطيعين الا تأتي بعد الآن .

— فردت الام :

— اشكرك يادكتور شكراً جزيلاً . ثم خاطبت ابنتها :

— قولي شكراً للعم .

لكن ليديكا لم تشأ أن تقول لي شيئاً . وولم أرها بعد ذلك بتاتاً واخذت انساها . أما معالجتني المرضي فكانت تزدد يوماً بعد آخر ،

وجاء يوم عالجت فيه مئة وعشرة مرضى ، فقد بدأنا العمل في التاسعة صباحاً وانتهينا في الثامنة مساء ، وعند انتهاء العمال ، نزعنا ودائنا الأبيض وأنا أتمايل ، ففالت لي مساعدي القابلة الاقدم :

— يجب ان تشكر الخناق على هذا النجاح . اتعرف مايقول الناس في القرى ؟ يقولون إنك مجنون اليديكا ، لقد وضعت مكلن حنجرتها حنجرة فولاذية ، واخطتها . إنهم يسافرون إلى تلك القرية خصوصاً كي يتساهدوها . هذا هو المجد يا دكتور . أهنتك . واستفسرت :

— او تعيش بهذه الحنجرة الفولاذية ؟

— نعم إنها تعيش . أما انت يادكتور فممتاز . تفعل كل شيء بدم بارد وبشكل رائع .

— إيه . . . نعم ، انا ، اتعرفين ؟ انا لا اضطرب أبداً . قلت لها هذا دون ان اعرف لماذا قلته . لكأ شعرت أنني من شدة الإرهاق لا أفتطيع حتى ان أخجل ، حاولت نظري إلى الجانب الآخر فقط ثم ردتها وذهبت إلى غرفتي . كانت ندف الثلج تتساقط لتفمر كل شيء . . . وكان المصباح مضاء . وكان ببتي منفرداً ، هادئاً وجميلاً ، والثناء سيري كنت أرغب في شيء واحد فقط : ان انام .



## التعميد بالتحويل

مرت الأيام وأخذت المعتاد الحياة شيئاً فشيئاً في منفى (نيكولسك) وبقي أهل القرى - على عادتهم - منهمكين في غزل الكتان ، وظلت الجوارى عسيرة العبور ، ولم يربّ عدد المرضى المراجعين عن خمسة يوماً ، لذلك فقد كرسيت الأماشي التي لم أكن أعمل فيها لترتيب المكتبة ومطالعة كتب الجراحة واحتساء الشاي عند السماور الذي يثر أزيزاً هادئاً ، وأنا أكابد الوحدة الطويلة .

كان المطر ينهمر ليلاً ونهاراً أنهماوراً متواصلاً ، وتنقر القطرات السقف نفراً لا يهدأ ، ويتدفق الماء غزيراً تحت النافذة وأشاحا من المزراب إلى البراميل . وكان الفناء موحلاً تحلق به من دبابجي الظلام السادرة في حلقنها وقد زادها الضباب عتمة . وانتشر من خلالهما حزم النور الشاحبة المنبعثة من نوافذ بيت مساعدي ومن اللصباح الزيتي المضاء عند الباب الخارجى .

في إحدى هاتيك الليالي كنت عاكفا على مطالعة الأطلس علم التنجيم أكابد الصمت المحقق بي ، الصمت الذي لم يكن يقطعه إلا هراش القنبران خلف النملية في عرفة الطعام .

قرايت حتى بلبات أجفاني المتشافة بالإغماض ، وأهملت الأطلس وأقصيته عنى لم انطلقت إلى غرفة النوم تحت ضجة الأمطار وقرعها ، وأنا أتمطى في التظلم أحلام هائلة ، فنزعت عنى ثيابي واضطجعت ولم أكد الأمس الحشية حتى لاح لعينى شبح آنا براخوروقا وهي صبية لم تناهز السابعة عشر من عمرها من قرية تورو بوفو ، جلست لتعلم أحد

أسنانها ، فدلف مساعدي ديميلان لوكيتش وهو يحمل بكلتا يديه الملاقط المتالئة. وتذكرت كيف كان يصطنع قبرة متفاححة في أسلوبه إذ يستبدل كلمة بأخرى مع أنهما تشيران إلى المعنى نفسه ، فضحكت ضحكة خبيثة ثم غفوت . لكنني استيقظت من نومي بعد نحو نصف ساعة فجأة كأن أحدهم قد جرنني من رجلي ، فاستويت في مجطسي وشرعت أجيل طرفي في الظلام وأصيح السمع وجلا .

كان ثمة قرع لجوج وقوي على البوابة الخارجية ، وحدثت أنه فرع منذر بالشؤم ... خفت القرع ، وقلقل المزلاج وتناهى إلى سمعي صوت الطباخة وهي تجيب على صوت غير مفهوم ، ثم صعد أحدهم على الدرج الذي أخذ يصرّ ، واجتاز حجرة المكتب أتم قرع باب غرفة النوم

— من هناك ؟

— أنا الممرضة اكسينيا ، قالت ذلك بهمس مفعم بالجلالة ...

— ماذا الأمر ؟

— لقد أرسلت أنا نيكولايفنا تطلب منك أن تذهب إلى المستشفى على جناح السرعة .

— ماذا حدث ؟ نطقت بهذا السؤال بينما أخذ قلبي يخفق خفقاً سريعاً وواضحاً .

لقد أحضروا امرأة من قرية دولتسيف ، ولادتها عسيرة .

« هكذا إذا ، لقد بدأت ... » لقد خطر هذا في ذهني ، وإعيايني ارتداء الحذاء كيفما جاء واتفق. آه يا للشيطان ! أعواد الثقاب لا تشتعل ، لكن ، وماذا ؟



كان هذا الامر سيحدث عاجلا او آجلا ، فالطب لا يقتصر على  
التهاب الحنجرة وقسطرة المعدة .

نهضت من فراشي وقلت :

— حسناً ... اذهبي واخبريها انني سأحضر في الحال .

خفقت خطوات أكسينبا وراء الباب ثم قلقل المزلاج من جديد .

لقد قفز النوم من عيني كالبرق ، فأسرعت إلى إضاءة المصباح ،  
وأصابعي ترتجف . وأخذت ارتدي ملابسني . السلعة الحادية عشرة  
والنصف ... ما قصة هذه المرأة وما امر ولادتها العسيرة ؟ « هم » ..  
وضعية غير صحيحة ... حوض ضيق ... أو من الممكن شيء آخر  
أكثر سوءاً . ما أسوأه من أمر اذ لا بد من استخدام الملاقط ، أنرسلها  
إلى المدينة فوراً ؟ هذا مستحيل ! سيتهامسون فيما بينهم : « يا له من  
دكتور » « لا كلام عليه » ... ! لا . حتى أنني لا أملك حقاً في ذلك .  
يجب أن أفعل كل شيء بنفسني ... لكن ماذا أفعل ؟ الشيطان وحده  
يعرف . ستكون مصيبتني كبيرة اذا ارتبكت أمام القابلات . على أية  
حال لا بد أن أعاينها قبل كل شيء ولا داعي للقلق مسبقاً ... لبست ،  
ووضعت المعطف على كتفي ، متمنياً من كل قلبي أن تجري الامور كما  
يجب ، وهرعت أركض تحت المطر ، فوق ألواح الخشب الموطوءة .  
ولاحت عربة في العتمة كانت الفرس تضرب بحافريها ألواح الخشب  
المنخورة .

— أنت من أتى بالمرأة الحامل ؟ سألت — دون أن أدري لماذا ..

الشبح الذي كان يتأرجح خلف الفرس .

أجابني صوت عجوز ممتعضاً :

— أنا ... ومن يمكن أن يكون ! أنا يا ابتاه ...

كانت المشفى ، على الرغم من الساعة المتأخرة في الليل ، تضيء حيوية ... ولكن المصباح مضاء يتلألأ في قاعة الاستقبال . وانسلت في الممر المفضي إلى غرفة التوليد أكسينيا من جانبي تحمل طستاً . وتناهى إلى سمعي من خلف الباب أنين ضعيف ثم ما لبث أن تلاشى . فتحت ودخلت غرفة التوليد ، أنها غرفة صغيرة معطية طلاء جيداً ومضاءة بضوء ساطع بفضل المصباح المعلق في السقف . وتمددت على السرير بجانب طاولة العمليات امرأة فتية مدثرة ببطانية حتى ذقنها ، وكان وجهها مصعراً ، جمده المرض ، والتصقت خصل شعرها الندية بجبينها .

كانت آنا نيكولايفنا تحضر محلولاً في الأوعية حاملة ميزان الحرارة بيدها ، أما القابلة الأخرى بيلاجيا أيفانوفنا فقد أخرجت من الخزانة الشرافيف النظيفة ، ورائحة مساعدي على الحائط متمصاً وقفة نابليون ارتعشوا جميعاً عندما راووني ، وفتحت الحامل صنيها وثنت يديها ثم مدتهما من جديد بالأم بصعوبة .

— ماذا ، ما الأمر ؟ سألت ، وقد دهشت من نبرة صوتي الهادئة الواثقة إلى حد ألم أعده .

اجابت آنا نيكولايفنا بسرعة :

— وضعية احتراضية . وتابعت صب الماء في المحلول .

قلت ما طأ الكلمات :

— ها ... كا ... ذا ، ماذا إذا ، فلنعاين ...

صاحت آنا نيكولايفنا في الحال :

— اغسلي يدي ، الدكتور يا أكسينيا . كان وجهها احتفالياً وجاداً

كان الماء يسيل مزيلا الرغوة عن اليدين المحمرتين من الفرشاة . .  
وحينذاك سألت أنا نيكولايفنا أسئلة تافهة مثل : هل أحضروها منذ  
وقت بعيد ؟ من أين هي ؟

رمت بيلاجيا ايفانوفنا الفطاء جانباً ، وجلست على طرف السرير  
أما أنا فآخذت أجش البطن المنتفخ بهدوء . أنت المرأة والنتصبت ، ثم  
تشبثت بأصابعها بالفطاء . قلت وأنا أضع يدي بحذر على الجلد  
المنبسط الحار والجاف .

— اهدهني . . . اهدهني . . ، اصبري . .

وفي الواقع كانت معاينتي للمريضة نافذة لا ضرورة لها خاصة  
بعد أن أروحت لي أنا نيكولايفنا صلاحية الخبرة الكبيرة بحقيقة الامر ،  
ولن أستطيع معرفة أي شيء جديد مهما استقصيت وفحصت ، فقد  
كان حدسها صائباً تماماً . وضعية مستعرضة . لكن ماذا بعد ؟ فهذا  
امر واضح مالم .

تابعت الفحص . وقد احمر وجهي ، وجسست جهات البطن  
كلها ، وكنت انظر من زاوية عيني في وجهي القابلتين ، كانتا جادتين  
مركزتين معاً ، وقرأت في عيونهما استحساناً لشغلي وفي الواقع كانت  
حركاتي واثقة وصحيحة وحاولت أن أخفي قلقي ما استطعت في أعماقي  
والأظهره مهما حدث .

— هكذا إذن — قلت متنفساً بعمق ونهضت من على السرير — بما  
أننا لن نرى شيئاً من الخارج أكثر مما رأينا ، فلنفحص من الداخل .

ولاح الاستحسان مرة ثانية في عيني أنا نيكولايفنا .

— يا أكسينيا . . .

مرة أخرى سال الماء .

« آه لو اقرأ دوديرليان(\*) الآن » . فكرت بوحشة وأنا أغسل  
بدي .

هيهات ، لا يمكن فعل هذا الآن . وماذا يمكن لدوديرليان أن ينفعني  
في هذه اللحظة ؟ انزلت الرغوة الكثيفة ، ومسحت أصابعي باليود .

هههه الشرشف التنظيف تحت يدي بيلاجيا إيفانوفنا . وانحنيت  
على الحامل وأخذت أفحصها فحصاً داخلياً وأنا حذر ووجل ، ولمعت  
في ذاكرتي من حيث لا أدري غرفة العمليات في مشفى التوليد : مصابيح  
كهروائية حارة ومضيئة في كرات حليبية ، أرض ذات بلاط رائع ،  
صنابير وأدوات جراحية براقية متألثة في كل مكان ، والاستاذ في ثوبه  
الأبيض الثلجي يعالج بيده الحامل ومن حوله ثلاثة أطباء مساعدين ،  
وبعض الأطباء المتمرنين وحشد كبير من الطلاب . كان كل شيء جيداً ،  
مضاء ، وآمناً . أما هنا فأنا الطبيب الوحيد ، وبين يدي امرأة تتعذب ،  
إنني مسؤول عنها . لكن كيف يمكنني مساعدتها ؟ لا أعرف ، لأنني لم  
أر عملية توليد عن قرب إلا مرتين في حياتي كلها في مشفى الجامعة ،  
وهاتان العمليتان كانتا ماديتين تماماً . الآن أقوم بالفحص وهذا لا يهون  
الامر عليّ ولا يخفف الألم على الحامل .

إنني لا أفهم شيئاً البتة ولا أستطيع فحصها من الداخل .

لقد حان الوقت لاتخاذ قرار ما .

وضعية اعتراضية ! بما أن الوضعية اعتراضية ، إذاً يجب ...

يجب أن ...

---

\* دوديرليان : اسم مؤلف الدليل الطبي العام الذي يذكره بولفاكوف في بعض  
قصصه .

— تحويل قلمي . قالت آنا نيكولايفنا التي نفذ صبرها وكانها تحدث نفسها .

كان يمكن لطبيب قديم خبير أن يعبس في وجهها لأنها تحترق أنفها باستنتاجاتها المتسعة قبل أن يبدي الطبيب رأيه، لكنني إنسان متسامح لا أنحس كثيرا .

— نعم . — أكدت بثقة ظاهرة — تحويل قلمي .

ولاحث ألام عيني صفحات دوديرليان : تحويل مباشر ... تحويل مركب ... تحويل غير مباشر .

صفحات وصفحات .. وعليها رسومات ، حوض ، أجنة مضغوطة معوجة برؤوس ضخمة ، يد متدلية معلقة بأشواط ...

قرأت هذا منذ زمن ليس ببعيد ، بل لقد وضعت خطوطا تحت كل كلمة متمعنا فيها . وتصورت ذهنياً العلاقة بين الأجزاء والأسلوب للعلاج كله . وقد انهيأ لي وقتها أن النص قد طبع برمته في دماغي . أما الآن فلا أذكر من كل ما قرأت إلا عبارة واحدة :

... الوضعية الاعتراضية هي وضعية ولادة عسيرة جداً .

الحقيقة هي الحقيقة ، وضعية ولادة عسيرة جداً ، ليست عسيرة على المرأة فقط ، بل على الطبيب الذي أنهى دراسته الجامعية منذ ستة أشهر فقط . قلت وأنا أنهض :

— حسناً ، سنفعل كل شيء .

انتعش وجه آنا نيكولايفنا . وأشارت إلى مساحدي ديميان كوكيتش :  
يُحضّر الكلوروفورم .

رائع انها اشارت بذلك فلم اكن متاكداً تماماً أن العملية تنجرى  
بالتخدير . بالتخدير طبعاً . وكيف يكون غير ذلك !

على كل حال لا بد من مراجعة دوديرليان ...

قلت بعد أن غسلت يدي :

— حسناً ! حضروا المخدر ، وأرقلوها ، وسأعود حالاً سأحضر  
سجائري من البيت فقط .

أجابت آنا نيكولايفنا :

— حسناً يا دكتور . ففي الوقت متسع .

نشرت يدي ، ووضعت الممرضة المعطف على كتفي ، ثم ركضت  
نحو البيت دون أن ادخل يدي في الكمين .

اضأت المصباح في غرفة المكتب ، واتجهت ، دون أن أنزع القبعة ،  
نحو رفوف المكتبة .

— هذا هو دوديرليان . « علم التوليد الجراحي » .

أخذت أقلب الصفحات الصقيلة بسرمة .

... تعرضت لعملية التحويل الأم للخطر

تسلل البرد إلى ظهري على طول العمود الفقري .

ينحصر الخطر الأساسي في إمكانية تمزق الرحم تلقائياً .

فـ ... قـ ... ثـ ... يـ ...

... إذا واجه الجراح عند إدخال اليدين في الرحم صعوبة في الوصول إلى الرجلين بسبب عدم كفاية المتسع الناتج عن تقلص جدران الرحم ، فعليه عدم متابعة المحاولات لتحقيق التحويل .

حسناً ! هنا إذا استطعت بفضل اعجوبة ما ، أن أحدد هذه « الصعوبة » وقتها لن أقدم على « متابعة المحاولات » . لكن ما عليّ أفعل إن كنت سأقوم بمعالجة امرأة مخدرة من قرية دولتسيف ؟

... يحتظر قطعياً محاولة الوصول إلى القدمين من محاذاة ظهر الجنين ...

سنأخذ هذا بعين الاعتبار .

بعد الإمساك بالرجل العليا خطأ لأنه قد يؤدي إلى التواء عمود الجنين الفقري ، وهذا يفضي إلى صعوبات كبيرة في سحب الجنين ، مما يتمخض عنه عواقب وخيمة .

« عواقب وخيمة » يا لها من كلمات ضبابية ، لكنها مع ذلك شديدة الإيحاء ! لكن ماذا سيحدث لو أصبح زوج المرأة الدوالتييفية أرملة ؟ نشفت العرق عن جبينني ، واستجمعت قواي ، وحاولت التركيز على الأشياء المهمة فقط : أي ماذا يجب عليّ أن أفعل وكيف وإلى أين أدخل يدي . لكن وعلى الرغم من تجاوزي البعض الأسطر السود التي لا يمكن قراءتها ، فقد التقيت بأشياء جديدة مخيفة ، كانت تقفز إلى عيني .

... نظراً لخطر التمزق الهائل ...

... التحويل الداخلي المركب هو إحدى عمليات التوليد الجراحية الخطرة على الأم .

وفي النهاية :

... مع كل تأخير يتضاعف الخطر .

هذا كاف ! لقد أتت القراءة أكلها ، إذ اختلطت الأشياء في رأسي  
اختلاطاً تاماً ، واقتنعت للحظة أنني أجهل كل شيء . ولاسيما التحويل  
الذي سأجريه : مركب ، غير مركب ، مباشر ، غير مباشر ...

تركت دوديرليان وارتميت على الأريكة محاولاً ترتيب أفكاري  
المتناثرة ما استطعت ثم نظرت إلى الساعة . آه يا للسيطان ! ظهر أنني  
في الغرفة منذ اثنتي عشرة دقيقة بينما ينتظرونني هناك ..

... كل ساعة تأخر ...

تتكون الساعة من دقائق ، وتنقضي الدقائق في حالة كهذه بسرعة  
شديدة .

طرحت دوديرليان جانباً ، وركضت عائداً إلى المشفى .

كان كل شيء جاهزاً هناك . ووقف مساعدي عند الطاولة وقد أعد  
القناع وقارورة الكافور فوراً .

تمددت الحامل على طاولة العمليات ثم أنينا متواصلاً ينتثر في  
أنحاء المشفى . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بصوت وديع وهي تنحني على  
الحامل :

— أصبري ، أصبري ، سيساعدك الدكتور الآن .

— آخ ، لا أستطيع... لا أستطيع... لن أستطيع الصبر...!

قالت القابلة :



.. لا تخافي ... لا تخافي ، سنعطيك الآن ما تسمينه وبعدها لن  
تسمعي شيئاً .

سال الماء من الصنبور مصدراً خريراً ، فأخذنا أنا ، وأنا نيكولا يفنا  
ننظف أيدينا المكشوفة حتى المرافق ونفسلها ... وراحت أنا نيكولا يفنا  
تخبرني ، - بينما كان أنين المريضة وصراخها يملآن الأرجاء - كيف كان  
الجراح الخبير الذي عمل قبلي في المشفى يجري عملية التحويل . كنت  
اسمعهما متلهفاً ، محاولاً ألا أفوت كلمة واحدة .

لقد علمتني هذه الدقائق العشرة أكثر مما تعلمت من علم التوليد  
عندما اجتزت الامتحانات بتقدير « ممتاز » .

لقد عرفت من الكلمات المتقطعة ، والجمل الناقصة ، والملاحظات  
الرمية بشكل عابر ، الأشياء الأساسية التي لا يمكن العثور عليها في أي  
كتاب طبي . إضافة إلى ذلك فقد غلكني في تلك اللحظة - عندما أخذت  
امسح يدي المناليتين النظيفتين الناصعتين بأشاش المعقم - الحزم  
وتوضعت في ذهني الخطوات المحددة والثابتة التي سأقوم بها ، تحويل  
مركب أو غير مركب ... لا ضرورة للتفكير الآن .

كل هذه الكلمات العلمية لا طائل تحتها في هذه اللحظة . المهم شيء  
واحد فقط :

أن أولج يداً في الداخل بينما استخدم الثانية للقيام بالتحويل من  
الخارج .. وليس الاعتماد هنا على الكتب بل على التقدير الصحيح  
والحركة المناسبة التي لا يصلح الطبيب بدونهما لأي شيء . نواظب ولكن  
في منتهى الحذر على خفض ساق الجنين إلى الأسفل لانتشاله منها .

يجب أن أكون هادئاً وحذراً ، وفي الوقت ذاته في منتهى الحزم  
والشجاعة .

— هيا ! أمرت مساعدي ومسحت يديّ باليود .

طلوت بيلاجيا إيفانوفنا في تلك اللحظة يدي الحامل وغطى مساعدي وجهها المتوجع بالقناع .

أخذت اقطر الكلوروفورم ببطء من الزجاجاة الصفراء الغامقة اللون فانتشرت في الغرفة رائحة مقززة والخزة تبعث على الإقياء . وغدت وجوه القابلتين والمسعد صارمة مذهولة .

— آي آي ، صرخت المرأة فجأة وحاولت بتشنج وحرقة ، الثوان نزع القناع .

— تماسكي .

وأمسكتها بيلاجيا إيفانوفنا من ساعديها فتنتهما ووضعتهما على صدرها . فصرخت المرأة عدة مرات محاولة إبعاد القناع عن وجهها ، لكن صراخها اخذ يخبو شيئاً فشيئاً ... إلى أن همهمت :

— ها — آ — دعوني آ ...

واستمرت همهماتهن بالتلاشي حتى أطبق الصمت في الغرفة البيضاء.

كانت النقاط التي لا لون لها تتساقط وتتساقط على الأشياء الأبيض ..

— التبض يا بيلاجيا إيفانوفنا ؟

— حسناً .

ورفعت بيلاجيا إيفانوفنا يد المرأة ثم تركتها ، فهوت ميتة كالعود الدابل فوق الشرشف . فأبعد مساعدي القناع وفحص حدقة عينها .

لقد نامت .

. . . . .  
. . . . .

غاصت يداي في بركة دم حتى المرفقين . وأخذ الدم يسيل على  
الشرف ممزوجاً ببعض القطع المتخثرة ، وتناثر الشاش المحمر في  
كل مكان . أما بيلاجيا إيفانوفنا فأخذت تهز الوليد وترتد على ظهره  
بينما كانت أكسينيا تفرقع بالدلاء ، لتملأ الطست بالماء ؛ ثم اخلوا  
بنطسون الوليد في الماء الحار تارة وفي البارد تارة أخرى . كان ساكناً  
وراسه هلمد بلا حياة وكأنه معلق بخيط يتأرجح من ناحية إلى أخرى .  
وفجأة سُمِعَ صوت لا يشبه أي صوت وزفرة لا تشبه أي زفرة ثم  
تناهى إلى أسماعنا صوت ضعيف مبسوح هو الصراخ الأول .

صاحت بيلاجيا إيفانوفنا :

— إنه حيّ ، حيّ . تم مددت الوليد على الحشيرة . والام حية  
أيضاً . لحسن الحظ لم تحصل مضاعفات خطيرة ، ساجس تبضها  
بنفسي . إنه متوازن ودقيق . وأخذ مساعدي يهز الولادة برفق من  
كتفها ويقول :

— هيا ! استيقظي يا خالة ، يا خالة .

القوا الشراشف المدماة جانباً وغطوا الأم بسرعة بالشراشف النظيفة  
ثم نقلها مساعدي وأكسينيا إلى العنبر وأخذوا الوليد محمولاً على  
الوسادة . . . . كان وجه الوليد الصغير الأسمر المجدد يطل من فتحة  
اللفافة ، مطلقاً بكاء رقيقاً لا ينقطع .

سال الماء من الصنابير غزيراً ، وسحبت أنا نيكولا لايفنا بشوق  
نفساً طويلاً من سيجارتها ثم طبقت جفنيها من أثر الدخان وسعلت .

— آه يا دكتور ! لقد أنجزت التحويل بطريقة رائعة ، وبثقة  
لا متناهية .

واشرعت أنظف يدي بالفرشاة بجدية ، وانظر إليها من زاوية عيني :  
الا تسخر مني يا ترى ؟ لكن ، ارتسمت على وجهها تعابير صادقة معتزة  
راضية ... فامتلا قلبي بالغبطة ، وأنا أنظر إلى الفوضى البيضاء المدماة  
من حولي ، إلى الماء الأحمر في الطست ، وشعرت بنفسى منتصرا . غير  
ان وسواسا من الشك أخذ يثور في أعماقي .

قلت : — سنرى فيما بعد ماذا سيحدث . فنظرت إليّ أنا نيكولا يفنا  
مندهشة :

— ماذا يمكن أن يحدث ؟ كل شيء على ما يرام .

فتمتعت مجيبا بكلمات غامضة :

— لقد كنت — في الحقيقة — أود أن أقول : هل كل شيء على ما يرام  
بالنسبة إلى الأم ؟ ألم أؤذيها أثناء العملية ؟ .. هذا هو الشيء الذي  
كان يمزق قلبي . إذ إن معرفتي بعلم التوليد ما هي إلا مقتطفات جمعتها  
من الكتب وهي أبعد ما تكون عن معرفة الحاذق المختص . التمزق ؛ لكن  
كيف يمكن معرفته ؟ ومتى ستتاح لنا إمكانية اكتشافه ؟ الآن يا ترى أم  
يمكن أن تكون فيما بعد ؟ .. الأفضل أن أكف عن هذا الموضوع الآن .

— لكن ، قد يحدث ، قلت ، هناك إمكانية العدوى . وكررت العبارة  
الأولى من أحد الكتب الجامعية .

— آه هكنا — قالت أنا نيكولا يفنا وهي تمط الكلمة . لن يحدث  
مكروه إن شاء الله ، ومن أين ؟ كل شيء نظيف ومعقم .

كانت الساعة الثانية في بدايتها عندما عدت الى بيتي فميزت في بقعة ضوء من المصباح على الطاولة في غرفة المكتب ، دويرليان المفتوح بسلام على صفحة « مخاطر التحويل » وتذكرت كيف جلست منذ ساعة لعب الشاي البارد وأقلب صفحاته . عندئذ حدث شيء طريف : كل الأسطر التي لم يكن بإمكانني قراءتها أصبحت مفهومة تماما بعد أن اضيئت إضاءة جيدة ، وفهمت في نهاية المطاف هنا في ضوء المصباح في ليل هذا الريف النائي ما تعنيه المعرفة الحقيقية .

« التجربة الكبيرة » نتحقق في القرية — فكرت وأنا أنام — لكن لا بد من القراءة ايضا ، القراءة أكثر فأكثر .

\* \* \*



## العاصفة الثلجية

إما أن تعوي كوحش مفترس  
أو تبكي كطفل صغير

بدأت هذه القصة بحسب ما تقول أكسينيا التي تعرف كل شيء -  
منذما وقع الحاسب ( بالتشيكوف ) الذي يتطن في قرية ( شالوميتوفا )  
في حب ابنة المهندس الزراعي . كان حباً ملتهباً أنهك قلب العاشق التعس  
سافر إلى ( غراتشيفو ) - وهي مركز القضاء - فاشترى لنفسه طقمًا  
رائعاً جداً ، ومن المحتمل أن تكون الخطوط الرمادية على بنطال الحاسب  
هي التي قروت مصير هذا الرجل البائس ، فقد وافقت ابنة المهندس  
الزراعي أن تصبح زوجة له .

أما أنا فما زلت طبيب مشفى ( نيكولسك ) الواقعة في طرف قصي  
من أطراف المحافظة ، وقد أصبحت مشهوراً جداً بعد أن بترت رجل  
فتاة وقعت في مطبخ الكتان ، حتى كدت أقتل من وطأة المجد والشهرة .

أصبح يأتيني إلى العيادة عبر الطريق الممهدة لعربات التزلج على  
الثلج نحو مئة مريض من الفلاحين يومياً ، حتى لم يعد يتبقى لي وقت  
لتناول الغداء . إن علم الحاسب علم صارم جداً ، فلنفترض أنني أقضي  
مع كل مريض من زبائني خمس دقائق فقط . . . . . خمساً ! ! فإن كل  
خمس مئة دقيقة تساوي ثماني ساعات وعشرين دقيقة . على نحو متواصل  
انتبهوا ! وفضلاً على ذلك عندي قسم للمرضى المقيمين في المشفى يتسع  
للثلاثين شخصاً ، إضافة إلى أنني أجري العمليات الجراحية .

كنت ، باختصار ، أعود من المستشفى في التاسعة ليلاً ، فاقداً الرغبة في الأكل أو الشراب أو النوم ، فاقداً الرغبة في كل شيء ، سوى رغبة واحدة هي ألا يأتي أحدهم ليدعوني إلى عملية توليد ، فقد أخذوني في الأسبوع الأخير خمس مرات في الليل عبر طرق التزلج الثلجية .

ظهرت غشاوة رطبة ومعتمة في عيني ، وظهرت غشون عمودية تشبه الدودة ما بين عيني . وحلمت في الليل — عبر الضباب المتقلب — بعملية جراحية مخففة : أضلاع عارية . ويداي مغموستان بالدم البشري ، فاستيقظت وأنا أشعر بالبرد ، وبالزوجة تعم جسدي على الرغم من اشتعال الموقد الهولندي .

كنت أسشي في الجولة التفقدية مشية مندفعة ، ويجر مساعدي ومساعدي وممرضتان أرجلهم ورائي . وتوقفت فجأة عند سرير نمدد فوقه مريض ذاب في حرارته ، وتنفس تنفساً شاكياً ، فعصرت من ذهني كل شيء فيه ، وتلمست بأصابعي جلده الجاف ، ونظرت في حدقته لم ربت على أضلامه ، وسمعت كيف كان قلبه ينبض خفية . وفكرت بشيء واحد فقط ، كيف يمكنني إنقلذه ؟ وكيف يمكنني إنقلد هذا وذلك والجميع .

كانت المعركة تبدأ كل صباح على ضوء الثلج الباهت ، ولا تنتهي إلا بتلاؤ ضوء المصباح الأصفر الساطع . قلت في نفسي بعد أن رجعت إلى غرفتي ليلاً : كيف ينتهي هذا كله ؟ أتمنى أن أعرف . فالمرء جمعون سيائون عبر طرق التزلج الثلجية في كانون الثاني وشباط وآذار .

كتبت إلى المركز في ( غراتشيفكو ) ، وذكرت بأدب جم أن منطقة ( نيكوالسك ) تحتاج إلى طبيب ثلثين . وسافرت الرسالة ، على طريق مرصوص عبر محيط من الثلج ، مسافة أربعين فرسخاً . وجاء الجواب بعد ثلاثة أيام ، كتبوا : أنه ... بالطبع ، حتماً ... بالطبع لكن ليس الآن ، إذ لا يلتحق أي طبيب الآن . ثم ختموا الرسالة ببعض التقرير الطيب لعملي مع التمنيات بالنجاح المستمر .



أحيا تشجيعهم آمالي ، فتابعتم وضع الضمانات القطنية ، وحققن الموصول ضد الخانوق ، وإجراء عمليات للدمامل الكبيرة ، وتجبير الكسور بالربطات الجبسية .

يوم الثلاثاء لم يأتني منه مراجع فحسب ، بل وصل العدد إلى مئة وخمسة عشر ، وأنهيت المعاينات في الساعة التاسعة مساء ، وغفوت وأنا أحاول أن أخمن كم سيكون عدد المراجعين غداً ، ثم حلمت أن عددهم قد بلغ تسعمئة مراجع .

أطل الصباح عبر النافذة الصغيرة لغرفة النوم أبيض على نحو غير مألوف ، ففتحت عيني دون أن أفهم سبب استيقاظي ، ثم فهمت : أنه القرع .

— يا دكتور ! هل استقظت ؟

ومررت الصوت ، إنه صوت القابلة ( بيلاجيا ايفانوفنا ) .

فأجبته ، وأنا بين العلم واليقظة بصوت متوحش :

— نعم .

— أتيت لأقول لك ألا تستعجل ، إذ لم يحضر إلى المستشفى غير شخصين .

— ماذا بك ؟ أتمزجين ؟!

— لا ، أقول الصدق ، إنها العاصفة . وكررت ذلك بفرح عبر ثقب الباب :

إنها العاصفة الثلجية يا دكتور . أما الانان اللذان حضرا فأسنانهما منخورة وسيقلعهما ديميلن لوكتيتس .

— يا له من ... ثم ففتت من سريري دون أن أعرف السبب . يا له من طقس رائع !

أخذت أمشي وأطوف في مسكني الفاخر طوال النهار ( كان بيت الطبيب مؤلفاً من ست غرف ، ولسبب ما من طابقين ، ثلاث غرف في الأعلى وثلاث أخرى في الأسفل مع المطبخ ) ، وورحت أصغر موسيقاً أو برالية ، وإدخن ، وأنقرُ على شباك النافذة ... وخلف الشبائيك حدث شيء لم أر مثله في حياتي كلها : لم يكن ثمة سماء ولا أرض أيضاً ؛ كلن البياض يدور ويلتف متعرجاً متمللاً طولاً وعرضاً ، وكان الشيطان يلهو بمسحوق الأسنان الأبيض . وفي نهاية النهار أصدرت أمري لأكسينيا التي تقوم بمهام الطبخ والتنظيف في شقة الطبيب ، كي تملأ ثلاثة دلاء ماء ، وكي تغلي الماء في المرجل ؛ إذ إنني لم استحم منذ شهر .

أخرجت بمساعدة أكسينيا طستاً كبيراً متراهمي الأطراف من غرفة المؤونة ، ووضعته في المطبخ ، ( الحديث عن الحمامات في ( نيكولسكا ) شيء مستحيل فهي موجودة في المشافي الكبيرة فقط ، وحتى هناك تكون معطلة ) .

هنا في الساعة الثانية اهتزاز الشبكة الحديدية في النافذة . وجلست في الطست عارياً ، ورغوة الصابون على رأسي .

— هذا رائع ... ! — تمتمتُ بلذة وأنا أصبُ الماء الحار على ظهري — رائع ، رائع ، بعد ذلك — أتعرفون؟ — سنتناول طعام الغداء ، ثم ننام ؛ وإذا شبت نوماً فلن يكون مهماً أن يأتي إلى العيادة غداً مئة وخمسون مراجعاً .

— ما الأخبار يا أكسينيا .

— سيتزوج المحاسب في ضيعة ( شالوميتوفا ) .

— صحيح ؟ ! وهل وافقت ؟

— والله !، وغنّت أكسينيا وهي تقرقع بالدلاء : ها ... ش ...  
... قة ...

— وهل الخطيبة جميلة ؟

— أجمل الجميلات ، شقراء وحيقة القد .

— قولي من فضلك .

وفي تلك اللحظة قرع الباب ؛ فصببت الماء على جسمي غاضباً ،  
وأصختُ السمع .

قالت أكسينيا بصوت مرتفع :

— الدكتور يستحم .

وقرقع صوت جهمر بور ... بار ...

ثم قالت لي أكسينيا عبر ثقب الباب :

— هذه رسالة لك يا دكتور .

— افتحي الباب قليلاً .

وخرجت من الطست منقبضاً ، وساخطاً على قدري ، ثم أخذت  
من يد أكسينيا مظلوفاً رطباً مهلهلاً .

قلت النفسي بثقة ضعيفة :

— كلا ، مستحيل ، لن أخرج من هذا الطست بتاتاً ، فانا إنسان  
أيضاً ، ثم فضضت المظروف وأنا في الطست .

مذكرات طبيب مـ{

« زميلي العزيز ( إشارة تعجب كبيرة ) ، اتضرع ( مشطوبة ) ، أرجوك رجاءً شديداً أن تحضر بسرعة . فقد فقدت المرأة وعيها ، وهي ننزف نتيجة الضربة قوية على الرأس من تجويف ( مشطوبة ) أنفها وفمها . لا أستطيع تدبر الأمر ، نبضها سيء . يوجد كافور . الدكتور ( التوقيع غير واضح ) » .

فكرت بحزن وأنا أتأمل الحطوب الملتهب في الموقد : « ما أسوأ حظي في هذه الحياة ! » .

— هل أحضر الرسالة رجل ؟

— نعم رجل .

— دعيه يدخل إلى هنا .

دخل الرجل قبلما لي كأنه رجل من العصر الروماني القديم ، بسبب خوذته الفاخرة التي يضعها فوق القبعة ذات الأذنين ، وقد ارتدى معطفاً من فرو الدئلب .

لسعنتني لفحة برد .

سألته وأنا أغطي جسدي الذي لم ينظف تماماً :

— لماذا تضع الخوذة ؟ .

فاجاب الرجل الروماني :

— أنا رجل إطفاء من ( شالوميتوفا ) . . والآن وقت مناوبتي . .

— من الدكتور الذي كتب الرسالة ؟

— إنه ضيف عند مهندسنا الزراعي ، طبيب شاب . لقد حلت  
بنا مصيبة كبيرة ..

— ومن هي المرأة ؟

— إنها خطيبة المحاسب .

تاوهت أكسينبا من خلف الباب .

— ما الذي حدث لها ؟ ( كان مسموعاً كيف التصق جسد أكسينبا  
بالباب ) .

— البارجة كانت الخطيبة ، وبعد الخطبة أراد المحاسب  
ان ينزله خطيبته على عربة التزلج ، فاسرج الحصان ، وربط  
المزالج ، وأركبها في المزلجة حتى الباب الخارجي ، وهناك قفز الحصان  
من مكانه قفزاً جامحة فرمى الخطيبة وارتطم جبينها بالعضادة . وهكذا  
كان ... يالها من مصيبة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ... إنهم يركضون  
وراء المحاسب في كل مكان كي لا ينتحر ، لقد جنّ .

قلت شاكياً :

— لكنني استحم ، لماذا لم تأتوا بها إلى هنا ؟

وصببت الماء على رأسي فذهبت رغوة الصابون في الطست .

أجاب رجل الإطفاء بتأثر عميق ، وقد ثنى يديه كأنه يصلي :

— هذا مستحيل أيها الطبيب المحترم ، لم نستطع ذلك ، ستموت  
الفتاة .

... و كيف نستطيع السفر ؟ والعاصفة !

— لقد هدأت ، ماذا بك ؟ لقد هدأت تماماً ، ثم إن الجياد سريعة ومصفوفة بعضها وراء بعض ، سنصل إلى هناك في ظرف ساعة ..

أطلقت أنيناً مقتضباً ، ثم خرجت من الطست ، وصببت دلوين من الماء على جسدي بحذر ، وجلست أقرقصاء قرب نار الموقد مقرباً رأسي من النار ليحفظ شعري قليلاً . « بعد رحلة كهذه لابد أن أصاب بالتهاب الرئتين ، بل بالتهاب رئوي فصيّ حاد . لكن . الأهم من ذلك هو ماذا سأفعل بها ؟ من الواضح — بحسب الرسالة — أن هذا الطبيب أقل خبرة مني . لكنني لا أعرف شيئاً ، ولم اكتسب خلال نصف عام إلا بعض المعارف العملية ، أما هو فأقل . يبدو وواضحاً أنه تخرج من الجامعة للتو ، وأنه يظنني طبيباً مخضماً .. » . لم لاحظ ، وأنا أفكر على هذا النحو ، كيف ارتديت ملابس التي لم تكن بسيطة وثاثاً ، سروال وبلوز وجزمة شتوية طويلة ، فوق البلوز جاكيت جلدي وفوقه معطف ثم فروة من جلد الخروف ، وقبعة ، وجرزت حقيبتني التي حوت : الكافيتين والكافور والمورفين والأدوية ، وملاقط ، ومواد معقمة ومحقنة ومسباراً ومسدساً من طراز براونينغ ، وسجائر وكبريتاً وساعة وساعة .

بدأ الأمر غير مخيف البتة على الرغم من العتمة التي ذوبت النهار .

عندما صرنا خارج سياج القرية ، كانت العاصفة تصفر صغيراً ضعيفاً منحرفة باتجاه الخلد الأيسر . وحجب رجل الإطفاء بجسده الضخم عني كفل الجوالد الأول . كانت جيادنا قوية فعلاً ، ثمشي بحيوية ونشاط ، وتجرجر الزلاجات التي اندفعت في الأرض الوعرة . تكومت داخل العربة فاستدقات بسرعة ، وفكرت بالتهاب الرئتين الغشائي ، وبإصابة الفتاة ، فقد تكون أصيبت بلزجاج في عظم الجمجمة من الداخل ، وانفرتت سظية في الدماغ .. سألت عبر ياقة القرو :

— أجيلد للإطفاء هذه ؟

— نعم ، نعم . اجاب الحوذي دون ان يلتفت .

— وماذا فعل لها الطبيب ؟

— آ ، نعم ، او ، هو ، اتعلم ؟ إنه مختص بالأمراض التناسلية نعم . . . نعم .

كانت العاصفة تعوي في الدغل ( هو — هو ) ثم أخذت تصفر صغيراً متقطعاً من الجانب ناطرة الثلج ، ثم استتدت بسرعة فأخذت تهزني وتهزني حتى صرت في حمامات ( ساندوفسك ) بموسكو ، حيث دخلت بفروتي إلى غرفة المشلح مباشرة ، ثم إلى غرفة البخار حيث غرقت في عراقي . فيما بعد اشتعل نبراس ، ولفحني البرد ، ففتحت عيني فرايت خوذة حمراء تتلألأ ، فظننت أن ثمة حريقاً ، وعندما انتبهت فهمت أننا وصلنا وأن العربة عند عتبة بيت أبيض ذي الصمدة ، مبني على ما يبدو في عهد ( نيكولاي الأول ) . كان الظلام دامساً حولي . وحضر لاستقبالني رجال الإطفاء الذين يرقص الالهب فوق رؤوسهم . عندها سحبت الساعة من جيب الفروية ونظرت : كانت الساعة قد بلغت الخامسة . إذاً لقد مشينا ساعتين ونصفاً . وليس ساعة واحدة فقط . عبرت المدخل نصف نائم مبتلاً ، وكانني في لفافة داخل سترتي الجلدية .

بهر ضوء المصباح عيني من الجانب ، وانعكست أشعة ضوئه على الأرض الملونة ، وهنا ركض نحوي شاب أشقر الشعر متعب المعينين يرتدي سروالاً مكويلاً للتو ، وكانت ربطة عنقه ذات اللون الأسود متلدة في إحدى الجهات ومنحشرة في الصدرية كحلبة ، وكانت بزته قشبية جديدة مكوية ، وكان ثنياتها من المعدن . ألوح الشاب بيديه ثم التصق بي وتشببت بفروتي وهزني وهو يصرخ :

— عزيزي ، يا دكتور . . . أسرع ، ستموت ، أنا القتال — ونظر إلى مكان ما على جانبه ففتح عينيه بقوة سوداوية — ثم قال لأحدهم :

— انا انا ، نعم هكذا . ثم اخذ ينتحب ، وامسك بشعره الخفيف  
يشده ورايت كيف كان يقتلع خصل شعره فعلا ، ويلغها على اصابعه .  
— كف عن هذا . قلت له وضغطت على يده .

تغل رجل انتباهه ، ونرااكت بعض النسوة . واخذ رجل آخر  
فروتي . وقادوني عبر الممرات المزينة نحو السرير الأبيض ، نهض الطبيب  
للاقائي ، كانت عيناه متعبتين ذاهلتين ، وظهرت فيهما للحظة ملامح  
الدهشة إذ رأني شاباً مثله . وعموماً فقد كنا متشابهين إلى حد كبير ،  
صورتين لوجه واحد من عمر واحد . لكنه فرح فيما بعد لحضورني  
حتى كاد يطير .

— ما أسعدني . . . يا رميلي ! . . . هكذا . . . انرى ؟ النرض  
ينخفض ، أنا — في حقيقة الامر — مختص بالامراض التناسلية : انني  
سعيد جداً بلجيئك .

كان تمة محقنة وبضع حبيبات من الزيت الاسفر وضعب على  
قطع من الناس فوق الطاولة .

تناهى إلى سمعي بكاء المحاسب عبر الباب المحكم الاغلاق ، وظهرت  
هيئة امرأة ترتدي الأبيض عند كتفي . كانت غرفة النوم مضاه نصف  
إضاءة ، وقد غطوا المصباح من الجانب بقماش أخضر . وتحت الضوء  
الأخضر توسد المخدة وجه أصفر اللون . شعر أشقر تفرق وتدلّت خصلته  
فوق الوجه . كلن الأنف حاداً . وامتلات فتحتاه بقطن غدا أحمر من  
النزف .

همس لي الطبيب : — النبض . . .

وتناولت اليد الميتة بحركة اعتيادية وضغطت بأصابعي فارتعشت  
كان النبض تحت أصابعي ضعيفاً وسريعاً ثم اخذ يتقطع وبعدها أصبح



خيطياً . شعرت ببرد اعتيادي في بطني — كما كان يحدث عادة عندما كنت اوى الموت عن قرب — إنني أكره الموت . واستطعت كسر حجاب الزيت الكثيف وسحبها في المحقنة ، وعبنا حقنت الفتاة في يدها حقناً ميكانيكياً ، فاختلج فكها الأسفل ثم ضغط على الأعلى ، ثم تدلى ، وارتعس الجسد تحت الغطاء وكان البرد لسعه . ضعف النبض تحت إصبعي ثم تراخى الى أن اختفت النبضة الأخيرة . همست في اذن الطبيب :

— لقد ماتت .

القت الهيئة البيضاء ، ذات الشعر الاشيب بنفسها فوق غطاء السرير الرتيب وتنبثت به وهي ترتجف .

— اهديني ، اهديني ! — قلت في اذن المرأة ذات اللباس الابيض اما الطبيب فمال نحو الباب منالما وقال بصوت خفيض :

— إنه يعدبني .

عندما تركنا الام الباكية في غرفة النوم ، والم نقل شيئاً لأحد ، ثم قلنا المحاسب الى غرفة بعيدة .

— إذا لم تتركنا فحقنك بهذا الدواء ، فإننا لن نستطيع فعل أي شيء . إنك تعلمنا وتعيق عملنا . عندها وافق وخلع جاكيتته وهو يبكي بهدوء ، فرفعنا ذراع قميص الخطبة الاحتفالي وحققناه بالمورفين ، ثم ذهب الطبيب الى غرفة المتوفاة وكأنه يريد مساعدتها ، ووقفت أنا عند المحاسب الذي ساعده المورفين أكثر بكثير مما كنت أتوقع ، إذ أخذ بعد ربع ساعة يبكي ويهذي بصورة أهذا ، ثم وضع وجهه الباكى على يديه ونام ، ولم يعد يسمع الجلبة والعويل والصراخ الذي يصم الأذان ...

قال لي الطبيب في الدهليز همساً :

— اسمع يا زميلي إن السفر خطير جداً ، ومن المحتمل أن تضيقوا ،  
ابق وبت هنا . . .

— لا ، لا ، لا ، لا أستطيع ، سأسافر مهما كلف الأمر ، فقد وعدني  
أصحاب البيت أن يعيدوني الآن .

— نعم سيعيدونك . لكن ألا ترى . . .

— عندي ثلاثة مصابين بالتيفوس لا يمكن تركهم ، ويجب أن  
أعينهم في الليل .

— الأمر لك إذا .

مزج الكحول ببعض الماء وأعطاني كي اشرب . وهناك في الدهليز  
أكلت قطعة لحم ، فشعرت بدفء داخلي ، وبدهاب الحزن عن قلبي  
بعض الشيء . ثم عدت للمرة الأخيرة إلى غرفة النوم ، وألقيت نظرة  
على المتوفاة ، وذهبت بعدها إلى غرفة المحاسب حيث تركت حيازة من  
المورفين للطبيب الشاب ، وخرجت متدبرا نحو الباب . وهناك عوت  
العاصفة ، وطاغات الجياد المفطاة بالثلج رؤوسها ، وتأرجح ضوء المشعل

سالت وأنا أفطى فمي :

— أتعرف الطريق ؟

فأجاب الحوذي بحزن شديد ( ولم تكن الخوذة على رأسه )

— نعم أعرفه ، لكن تستطيع قضاء الليلة هنا . . .

كان واضحاً — حتى في الذي قبعته — أنه لا يرغب بالسفر إطلاقاً .

وأضاف الشخص الثاني الذي يمسك بالمشعل المغيظ :

— الأفضل ان تبقى فالطرقات سيئة .

فصرخت بصوت عال :

— سنسافر إنها اثنا عشر فرسخاً لا غير . عندي مرضى حالتهم سيئة . ثم اندست في المزلجة .

أقرت — وهذا ما لم اقله بعد لأحد — ان فكرة البقاء في بيت تحل فيه المصيبة ، وتخور فيه قواي ، وتندم فالدتي ، بدت لي غير محتملة .

هو الحوذي بلا أمل على مقعده ، وتهادى ثم احتدل ، وقفزت الجياد خارج الباب الخارجي ، فاختفى المشعل وكأنه ابتعد أو انطلقا ، وخطر في ذهني بعد دقيقة ان التفت إلى الخلف ، فالتفت بصعوبة ، ولاحظت أن المشعل لم يختف وحده ، بل اختفت ( شالوميتوفا ) برمتها ، بكل جهاتها كما لو أنها كانت في العظم . فوخزني ذلك وخزاً مؤلماً .

— لكن ، هذا رائع ... — ليس هذا ما أفكر به ، وليس هذا ما قلته . خبات أنفي ثانية وغطبتة حتى أصبح الأمر مزعجاً . لقد التفت الكون كله في كتلة واحدة وأخذت العاصفة تهزها من كل الجهات . واندفعت الى رأسي فكرة :

— أو ليس الأفضل ان نعود ؟

لكنني طردتها وحشرت نفسي في القش في قاع المزلجة ، كما لو أنني في زورق ، وانحدرتنا ، فاطبقت جفني ، وتذكرت فوراً الوجه الأبيض والمصباح اللفظي بخرقه خضراء ، وغدا كل شيء واضحاً في ذهني فجأة : « إنه كسر في قاعدة الجمجمة ... نعم نعم ... هكذا بالضبط . وازدادت تقني ان هذا التشخيص صحيح . إنه الإلهام . ولكن ما

الفائدة ؟ لا فائدة من معرفة هذا الآن ، بل لم يكن ثمة فائدة من قبل ،  
وماذا تفعل بهذه المعرفة ؟ يا له من قدر مخيف ! ! إنه إن السخيف  
والرهيب أن يعيش المرء هذه الحياة ! ماذا سيحدث يا ترى في بيت  
المهندس الزراعي ؟! إن التفكير في هذا يبعث على الحزن والامتعاض .

أخذت أشفق على نفسي من حياتي الصعبة ، فالناس نيام الآن  
والمواقف مشتتة ؛ أما أنا فلم أستطع أن أتم استحمامي ، تحملني  
العاصفة كورقة ، وهكذا ساصل الى البيت ، وهناك لن يكون الأمر  
أفضل ، فسيأخذونني من جديد الى مكان ما ، سأبقى طائراً في العاصفة  
على هذا النحو . أنا وحيد والمرضى بالآلاف . وهكذا سأصاب بالتهاب  
الرئتين ، وقد أموت هنا . وبينما كنت أشكو نفسي النفسي ضمت في  
العملة دون أن أدري كم من الوقت قضيت فيها . لم أجد نفسي في  
اية حمامات ، ولم أجد إلا البرد الذي قرصني والذي أخذ يشتد ويشد .

وعندما فتحت عيني رأيت ظهراً أسود ، ومن ثم فهمت أننا لا نمشي  
بل نقف .

.. سألت وأنا أحرق بعيني المتعبتين :

— هل وصلنا ؟

تحرك الحوذي الأسود متمللاً ، لم خرج من مزليجته فجأة ،  
وتهياً لي أن الرياح تتجاذبه من كل الجهات ... لم تحدث دون أن  
يبدي أي احترام في لهجته :

— وصلنا ... كان علينا أن نسمع أصوات الناس إذا ... آه  
يا إلهي ! سنقتل أنفسنا ، وسنقتل الجيل أيضاً .

— وهل ضلنا الطريق ؟ وشعرت — عندها — بالبرد في ظهري .

فاجابني الحوذي بصوت حائق :

— عن أي طريق تتحدث ، كل شيء امامنا لونه أبيض . طريق ! :  
لقد ضعنا دون جدوى . إننا نمشي منذ أربع ساعات . لكن إلى أين ١٤٠٠ :  
هذا ما حصل .

أربع ساعات . اخذتُ اتحرك ، اتلمس الساعة ، واسخرجت  
الكبريت ، لكن لماذا ١٤ لم يكن نمة فائدة ترجى منه إذ لم يشتعل أي  
عود . تقدح ، فيومض : ثم ما تلبث النار أن تخبو وتنطفئ .

قال رجل الإطفاء بصوت جنائري :

— اقول لك : أربع ساعات ، ماذا سنفعل الآن ؟

— وأين نحن الآن ؟

لقد كان سؤالاً غيبياً إلى حد أن الحوذي لم يجد ضرورة للإجابة  
عنه ، تلفت في مختلف الاتجاهات — وخيل إليّ للحظة أنني لا اتحرك  
بل العاصفة هي التي تهزني في المزلجة — ثم خرجت من المزلجة ، ففهمت  
على الفور أن الثلج قد وصل إلى مافوق المركب ، وأن كسبان الثلج قد  
وصلت إلى بطن الجواد الأخير الذي تدلى لبده كمرأة قليلة الشعر .

— هل أصبحنا وحيدين ؟

— نعم . وحيدين . وخارت قوى الجياد .

وتذكرت بعض القصص ، والسبب ما شعرت بالكره تجاه ( ليف  
تولستوي ) ، فكرت : « كانت حياته هائلة في قرية ( ياسنايا بوليانا ) ،  
إذ لم يأخذه على ما يبدو إلى بيوت الموتى . . . » وشعرت بالإشفاق على  
رجل الإطفاء ، كما أنني عانيت أنا نفسي شدة الخوف الموحش ، ولكنني  
خنقته في قلبي .

تمتتم بانزعاج :

— هذا تخلخل ... وشمرت بطاقة هائلة تظهر في أعماقي

ثم قلت وأنا لأشعر أن أسناني تتجمد من شدة البرد :

— هذا هو قدرنا ياعم ، لكن لا وقت لدينا للتعبير عن الاكتئاب هنا ،  
وإلا فإننا سنهلك فعلاً . لقد توقفت الجياد قليلاً ، ونالت نصيباً من  
الراحة ، ويجب علينا أن نتابع المسير . اذهب أنت وقد الجواد الأمامي  
من لجانه ، وسوف أوجه أنا البقية من عندي . يجب أن نخرج من هنا  
بسرعة قبل أن يطرنا الثلج .

وانطلق الحوذي إلى الأمام — وبدأت أذنا قبعتة شديدي الوضوح —  
يتعثر ويتخبط حتى وصل إلى الحصان الأمامي . لقد بدت لي عملية بدء  
إقلاعنا طويلة لا تنتهي . كانت العاصفة تصفني بثلجها الجاف . وبها  
الحوذي مثل الشبح يتأرجح أمام عيني .

— إوه . آخ ... تنجح الحوذي .

— هيا . هيا . صرخت وأنا أهر العنان بقوة .

تحركت الجياد ببطء شديد متخبطة في الثلج ، وبدأت  
عربات المزلاج تهتز كأنها على الأمواج ، وكان الحوذي يكبر  
تارة ويصغر أخرى إلى أن تخلص بصعوبة وركض إلى الأمام . تابعنا  
تحركنا على هذا النحو ربع ساعة تقريباً ، وفي النهاية شعرت أن المزلاج  
بدأت تصر بصيراً متوازناً ، وغمرت السعادة قلبي عندما أصبحت أرى  
حوافر الجواد الخلفي تتناوب في الظهور .

صحت :

— الثلج قليل هنا ، يبدو أنها الطريق .

— نعم نعم . اجابني الحوذي عائداً بصعوبة نحوي وقد كبر فجأة ،  
ثم ردد بصوت حاد ومنقطع من شدة الفرح :

— يبدو انها الطريق . إن شاء الله لن نفوس ثانية ، ولن نضعها .  
— إن شاء الله .

عاد كل منا إلى مكانه ، وانطلقت الجياد بنشاط ، وخيّل إليّ  
ان العاصفة قد هدأت حتى أصبحت ضعيفة ، وانها خفت فوق  
رؤوسنا ، ولم يبق على جبيننا سوى الثلج الكدر . ولم أعد أتمنى أن  
نصل إلى المشفى دون سواها ، بل أن نصل إلى أي مكان مأهول لآبد أن  
تؤدي إليه الطريق .

أسرعت الجياد فجأة ، وأخذت تقفز بحيوية ، ففرحت فرحاً  
مبهماً ، ثم سألت :

— هل شعرت الجياد بوجود مكان مأهول ؟

الم يجبني الحوذي ، فرفعت جسدي من المزلجة وتفحصت ماحولي .  
ثم تنهأت إلى سمعي صوت غريب حزين ومتوحش انبعث فجأة من مكان  
ما في العتمة ، ثم اختفى . فسألت حالي دون أن أعرف السبب ، وتذكرت  
كيف اشتكى المحاسب وهو يضع رأسه على يديه . وفجأة لاحظت على  
الجانب نقطة معتمة ما لبثت أن كبرت حتى غدت قطعة سوداء ، ثم  
كبرت وكبرت وأخذت تقترب ، فالتفت رجل الإطفاء نحوي ، فرأيت  
كيف قفزت أسنانه الاصطناعية من مكانها . وسأل :

— هل رأيت أربها الدكتور المحترم ؟

انعطف أحد الجياد نحو اليمين ، والآخر نحو اليسار ، وتلوه رجل  
الإطفاء ثقية ، وإشتم على ركبتيه ، ثم اعتدل وأخذ يهز العنان بسدة ،  
فصهلت الجياد وانطلقت اندفاعاً متعرجاً مهتزاً ، تقذف كتل الثلج وراءها .

ارتعشت عدة مرات ، لكنني تماكنت نفسي وأخرجت جسدي من  
صب المزوجة وتناولت مسدس البراونينغ وأنا ألعن نفسي لأنني نسيت  
مخزن الطلقات الاحتياطي في البيت . « لا ، إذا كنت غير راغب في البقاء  
والنوم ، فلماذا لم أحمل معي مشعلا ١٩ » وتخيلت خبرا صغيرا في الحديقة  
عن نفسي ، وعن رجل الاطفاء تعس الحظ .

كبرت القطة فأصبحت كلبا ، وأخذت تتمشى بالقرب من المزالج ،  
والفتت فرائيت مخلوقا ثانيا بأربع قوائم قريبا جدا خلف المزالج .  
أستطيع أن أحلف أن هذا المخلوق كان ذا أذنين حادتين ، وأنه كان يمشي  
خلقنا بهدوء كما لو أنه يمشي على الباركيه ، وقد تبدت من مشيته  
سمات وحشية رهيبة .

« أقطع هم أم اللان فقط ؟ » وعند كلمة « قطع » شعرت وكان  
قطرانا قد غمرني تحت المعطف وأن أصابعي لم تعد متجمدة فوق رجلي .  
وقلت بصوت ليس لي ، ولم أعده من قبل :

— تماسك جيدا ، وأمسك الجياد ، أما أنا فساطلق النار الآن .

أجلب الحودي بآه فقط ، ثم خبأ رأسه بين كتفيه .

لمت الطلقة أمام عيني ، وصمّ دويها أذني ، ثم أطلقت ثانية  
وثالثة ... ولا أذكر كم دقيقة هزني الطلقات في قاع المزوجة .

سمعت صهيل الجياد المتوحش ؛ فضغطت على زناد البراونينغ ،  
فاصطدم رأسي بشيء ما ، فحاولت أن أخرج من المزوجة بفتة ، وفكرت  
برعب شديد بأن جسدا ضخما مخيفا قد تشبث بصدري وتخيلت منظر  
أحشائي المزقة . وفي تلك اللحظة صلح الحودي :

— ها ... هوذا هناك ، ها هوذا ... يا إلهي اطرده ...



واستطعت في نهاية الامر ان اسوي أمري مع فروتي الثقيلة ،  
وأحرر يديّ منها . ورفعت رأسي فلم أرَ حيوانات سوداً مفترسة لا من  
الخلف ولا من الجوانب . وهبت العاصفة بلطف وهدوء ، ثم التمع ضوء  
شديد الروعة — أعرفه الآن ، وكنت أستطيع تمييزه من بين الآلاف —  
إنه ضوء المصباح في مسفاي ، وخلفه انتشرت العتمة ، « ياله من منزل  
رائع ! وهل هناك قصور أجمل ؟ » ومن شدة فرحتي أطلقت طلقتن  
من البراونينغ نحو الخلف حيث هربت الذئاب ..

وقف رجل الإطفاء في منتصف الدرج المؤدي إلى الجزء السفلي من  
بيت الطبيب الرائع ، ووقفت أنا في أعلاه ، وبقيت أكسينيا التي ترتدي  
معطفها المصنوع من فرو الضأن في الأسفل . قال الحوذي :

— مهما أعطيتوني من ذهب فلن أذهب ثانية ... ، ولم يتمّ عبارته ،  
وشرب كأساً من الكحول دفعة واحدة ، تنحنح بعدها نحنحة مخيفة ،  
ثم التفت إلى أكسينيا وأضاف وهو يمسك يديه ما مكنته طبيعة بنيته :

— يا لها من ذئاب ضخمة !

وسالتني أكسينيا :

— هل ماتت ؟ ألم تنقلوها ؟

فأجبت دون اكتراث :

— لقد ماتت .

بعد ربع ساعة هذا كل شيء في رأسي ، وأطفئ النور في الأسفل ،  
وأصبحت وحيداً في الطابق العلوي . ولسبب ما ضحكت ضحكاً  
متشنجاً ، ثم حلت أزرار البلوز ، وعدت فزرتها ثانية ، ومشيت نحو

رفوف المكتبة وتناولت مجلد الجراحة ، أردت أن أعرف شيئاً ما من  
كسور الجمجمة . لكنني طرحت المجلد جانباً وصرخت بصوت مدوّ :

— مهما أعطيتموني ... لكن بعد الآن لن أذ .. ه .. ب .

وصفرت العاصفة هازئة ... ستذهب ... هه ستذهب ...

ومرت الرياح ، فأصدرت فوق السطح أصواتاً كالرعد ، ثم صفرت  
عبر المزاليب ، وخرجت منها ، ثم خشخشست على الشباك ، ثم ابتعدت ،  
ودقت عتلات الساعة ، ستذهب ... ستذ ... هب ...

ثم هدأت وهذات .

ثم لا شيء . هدوء . نوم ...



## العتمة المصرية

أين العالم كله في يوم عيد ميلادي ؟ أين مصابيح موسكو الكهربائية ؟  
أين الناس ، السماء ؟ ليس نعمة شيء خلف النوافذ سوى العتمة !!

نحن مفصولون عن الناس تملأ ، إذ تبعد أقرب المصابيح الكازية  
التي تقع عند محطة السكك الحديدية تسعة فراسخ عنا . ربما يتلأأ  
هناك مصباح كهربائي تخنقه الزوبعة ؛ ويمرّ من هناك في منتصف الليل  
القطار اللهاهب الى موسكو هادراً ، دونما حاجة للتوقف في هذه المحطة  
المنسية والمدفونة في قلب العاصفة ؛ لا بد انه يحمل شيئاً ما في طريقه .

أما أقرب مصباح كهربائي فيقع في مركز القضاء على بعد أربعين  
فرسخاً منا . هناك الحياة حلوة ، إذ يوجد كثير من المحال التجارية ،  
ودار للسينما ... وفي الوقت الذي تعوي فيه العاصفة ويفمر الشلج  
الأرض ، يمكننا أن نرى على الشاشة كيف يسبح القصب ، وتتمايل  
أشجار النخيل وتتلأأ الجزر الاستوائية .

نحن هنا وحيدون .

قال مساعد ديديمان لوكيتش وهو يرفع الستارة :

— عتمة مصرية .

إنه يعبر عادة بأسلوب مهيب وشديد الإحكام ، فالعتمة مصرية  
ولا يجوز أن تكون غير ذلك . ودموتهم :

مذكرات طبيب مـهـ

— ٦٥ —

— أرجوكم ان تنربوا قدحاً آخر . ( آه ، أرجو ألا تستنكروا  
فالطبيب ومساعدته والقابلتان بنسـ" ايضاً . نحن لا نرى لأشهر كاملة  
أحداً غير مئات المرضى ، إننا نعمل في الثلج ، وندفن فيه . اليس من  
حقنا ان نشرب قدحين من الكحول الممزوج بالماء حسب الوصفة . وأن  
نأكل سمك الإسبرط في عيد ميلاد الطبيب ؟ ) .

قال ديميان لوكيتس على نحو مؤثر :

— بصحتك يا دكتور .

وقالت آنا نيكولايفنا وهي ترفع كأسها ، وتسوي ثوبها الاحتفالي  
الموشى :

— نتمنى لك ان تعتاد الحياة عندنا .

رفعت القابلة الثانية بيلاحيا إيفانوفنا — التي أفرطت في الشرب —  
قدحها ، ثم جلست القرفصاء لتحرك نار الموقد بالمسعر . . . فظهرت  
آثار الحرارة في وجوهنا . . . وأحسنا بالدفع يفمر صدورنا بفعل  
الفودكا .

قلت بانفعال شديد ، وأنا أهدق في سحبات الشرار المتطاير بجانب  
الموقد :

— إنني لا أفهم أبداً ما فعلته المرأة بدواء البيلادونا(\*) . إنها مصيبة  
حقيقية .

لمبت الابتسامات على وجوه المساعد والمرضتين .

---

(\*) البيلادونا : نبتة ست الحسن . يستحضر منها بعض المستحضرات الطبية .

جوهر القصة أن امرأة متوردة الخدين في الثلاثين من عمرها تقريباً  
جاءتني الى العيادة في فترة الدوام الصباحية ... استندت على كرسي  
مساعدتي الموضوع خلف ظهري ، ثم اخرجت من مبتها زجاجة صغيرة  
مريضة مدورة ، وقالت متملقة :

— شكراً لك ايها الدكتور على الشراب ، فقد ساحلي كثيراً ...  
هلا تكرمت عليّ بزجاجة أخرى .

أخذت الزجاجة من يدها ونظرت في الورقة الملصقة عليها ، فأصبح  
كل شيء اخضر في عيني . كان قد كتب على الورقة بخط ديميان  
لو كيتش :

« شراب البيلادونا ... » الخ ... « ١٦ » ، كانون الاول ،  
عام ١٩١٧ .

وبكلمات أخرى : البارحة فقط اعطيت هذه المرأة كمية لا بأس بها  
من البيلادونا ، واليوم السابع عشر من كانون الاول ، في عيد ميلادي ،  
جاءت هذه الحرمة بالزجاجة فارغة تطلب المزيد .

سألتها بصوت متوهش :

— هل تنلوت البارحة ؟

— نعم . كله ، يا سيدي المحترم ، كله . ليعطك الله الصحة لقاء  
هذا الشراب . شربت نصف الزجاجة عندما وصلت ، والنصف الثاني  
عندما أردت النوم .

وما إن رفعت يديها عن كرسيّ مساعدتي حتى استندت أنا عليه ،  
وقلت بصوت مخنوق :

— كم نقطة قلت لك ؟ لقد قلت لك خمس نقاط ... ماذا فعلت  
يا امرأة ؟ إنك ... إنني ...

— والله لقد تناولته . هكذا قالت وهي تظنّ أنني لا أنق بها ، ولا أثق  
أنها تناولته .

أمسكت بيديّ خديها اللوردين ، وحدثت في بؤبؤي عينيها ، لكن  
البؤبؤين كانا طبيعيين . كانا جميلين إلى حدٍ كبير وعاديين تماماً . وكان  
نبضها جيداً ، ولم لاحظ عموماً ، أية أعراض للتسمم بالبيلاذونا عند  
هذه الحرمة .

قلت :

— هذا غير ممكن . تم ناديت ديمان لوكيتش ، فظهر بغتة قادماً  
بردائه الأبيض من الممر المؤدي إلى الصيدلية .

— انظر يا ديمان لوكيتش من فضلك ، انظر ماذا فعلت هذه  
الحسنة ، إنني لا أفهم شيئاً ...

أدارت الحرمة رأسها بخوف ، وقد فهمت أنها ارتكبت حماقة ما .

تناول ديمان لوكيتش الزجاجاة وشمها ، ثم أدارها في يده وقال  
حازماً :

— أنت يا عزيزتي تكذبين ، أنت لم تتناولتي الدواء .

— والله ، والله ...، أخذت المرأة تقسم .

قال ديمان لوكيتش وقد أوى فمه غاضباً :

— لا تحاولي ذرّ الرماد في العيون . إننا نعرف كل شيء معرفة  
تامة . اعترفي ، هيا ! من عالجت بهذا الشراب ؟

نقلت الحرمة بؤيؤها العادين النظر في السقف المكلس التنظيف ،  
ورسمت علامة الصليب .

— هذا ما ...

قاطعها ديميان لوكينش قائلا :

— كفي كفي ... ثم توجه بحديثه إليّ ... هل تعرف ماذا يفعل  
هؤلاء يا دكتور؟! ... تأتي إحدى النساء الكاذبات إلى المشفى فيعطونها  
دواء ، فتعود إلى قريتها فتضيف جميع الحريم هناك .

— ماذا أيها المساعد المحترم ...

— اسكتي . تدخل مساعدي ثانية ؛ إنني عندكم هنا للعام الثامن .  
ثم تابع موجهاً خطابه إليّ :

لقد قطرت الزجاجة في البيوت كلها بالطبع .

لكن الحرمة عادت ترجوني متملقة :

— اعطني بعضاً من هذا الشراب أرجوك .

فاجبتها وأنا أمسح العرق عن جبينني :

— لا ، لا أيتها الحرمة ، لا ضرورة لداوانك بعد الآن بهذا الشراب ،  
الم يبرا بطنك؟

— هه ! ليس تماماً ، وأشارت بيدها !

— هذا شيء رائع ، سأكتب لك على دواء جديد ، إته دواء جيد  
أيضاً .

وكتبت للحرمة على دواء النردين(\*) ، فخرجت خائبة .

لقد تحدثنا عن هذه الحادثة في شقتي في يوم عيد ميلادي عندما كانت العتمة المصرية خلف النوافذ كأنها ستارة من الروايع المزعجة .

قال ديميان لوكيتش وهو يمضغ السمك المزيث بتهذيب شديد :

— ما هذا ما هذا . . ؟ لكننا قد اعتدنا الحياة هنا . وانت يا عزيزي الدكتور ستعتاد ، وستعتاد كثيراً ، إنها غابة .

— آه يا لها من غابة . ردت آتنا نيكولايفنا وكأنها الصدى .

أخذت العاصفة الثلجية تعوي في المداخل ، وخشخشيت ضرباتها على الحائط الخارجي ، وانعكست بقايا الضوء الأرجواني الذي ترسله النار على صفيحة الموقد السوداء .

بوركت النار التي تدفئ الطاقم الطبي في هذه الغابة .

قال مساعدي بعد أن أخذ يدخن ، وقد قدّم لانا نيكولايفنا سيجارة بتهذيب جم :

— هل ترغب بسماع شيء عن سابقك الدكتور ليوبولد لبوبولديفيتش ؟

كان طبيباً رائعاً . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بحماس شديد وهي تنظر بعينها الفانتين في نار الموقد المباركة وقد تلاّلت بكلة شعرها الأسود المزينة بأحجار مزيفة .

نم أكد مساعدي :

---

(\*) النردين : دواء مسكن يصنع من جذور نبتة الفاليريانا ( Valeriane ) .



– نعم إنه رجل عظيم ، وقد أحبه الفلاحون حتى العبادة ، لأنه مرف كيف بكسب ودهم . فكانوا يتمددون لإجراء العمليات عنده بكل سرور ، ويسمونه ليونتي ليونتي فيتش بدلا من ليوبولد ليوبولدي فيتش ، كانوا ينقون به وكان هو يجيد الحديث معهم . اسمع أيضاً هذه الحادثة :

أني واحد من معارفه للمعالجة ، كان اسمه فيودور كوسوي من قرية دولتسوف ، فقال شاكياً : – اشعر يا ليونتي ليونتي فيتش بانقباض في صدري ، لكن ليس إلى حد الاختناق وعدا عن ذلك نمة شيء ما يخنخن في بلعومي ...

– خذ ليارنيفيت . قلت آلياً إذ اعتدت السرعة بعد شهر من الاستعجال في تشخيص الأمراض الريفية .

– عين الصواب . « إذا سأقدم – قال له ليونتي – لك علاجاً وستبرأ خلال يومين . خذ لصقتي خردل فرنسيتين ! تلصق واحدة على ظهرك بين الكتاف ، والثانية على صدرك ، وبعد أن تلصقهما تنتظر عشر دقائق ثم تنزعهما ... هيا إلى الامام سر » .

أخذ المريض اللصقتين وذهب ، ثم ظهر بعد يومين من جديد في العيادة ..

« ما الامر ؟ » سأله ليونتي . فأجابه كوسوي :

– « ما هذا يا ليونتي ليونتي فيتش ؟ لم تساعدني لصقاتك قط » .

فأجابه ليونتي :

« تكذب ! إذ لا يمكن للصقات الخردل الفرنسية إلا تساعد ، يبدو أنك لم تضعهما ! »

أجاب : - « كيف لم أضعهما ؟ إنهما ملصوقتان الآن » وعلى الفور  
استدار ليري الطبيب ظهره .

كانت اللسقة ملصوقة على معطفه !...

انفجرت 'مقهقها' ، وضحكت 'بيلاجيا' إيفانوفنا مستهزئة وضربت  
قطعة الحطب بالمسعر بعنف .

فلت : - هذا من اختراعك ، إنها نكتة ، هذا لا يمكن أن يحدث .

-- نكتة ؟! نكتة ؟! صاحت القابلتان معا بصوت عالٍ .

ردّ مساعدي بعنف :

— لا ، لا ، لا ! أعرف ؟ حياتنا هنا هي مجموعة نكات كهذه... الأمور  
كلها هكذا هنا .

ثم قالت آنا نيكولايفنا :

— والسكر ! حدثينا عن السكر يا بيلاجيا إيفاننا\* !

أغلقت بيلاجيا إيفاننا باب الموقد ، وقالت غاضبة طرقها :

— سافرت مرة إلى قرية دولتسوف لتوليد امرأة... .

لم يستطع مساعدي تمالك نفسه فقاطعها وعلق :

— دولتسوف يا له من مكان فائع الصيت . ثم قال أنا آسف تلبي  
يا زميلة .

---

(\*) إيفاننا : اسم التحبب من إيفانوفنا .

— لا بأس سأتابع ، — قالت بيلاجيا إيفانا — ثم تابعت : عندما كنت  
أفحص الحامل شعرت تحت أصابعي في قناة الولادة بشيء ما غير مفهوم  
... شيء هش مرة ، وحاد مرة أخرى ... تبين لي فيما بعد أنه  
سسكر أبيض ...

قال ديميان لوكيتش بأسلوبه الاحتفالي :

— يالها من نكتة .

— اعدوني لا أفهم شيئاً .

فسارع بيلاجيا إيفانا بتقديم الشرح :

— القصة كلها أن الساحرة قالت للحرمة الحامل إن ولادتها عسيرة،  
وإن الجنين لا يودّ الخروج إلى ضوء الله ، لذا كان لا بد من إغرائه بشيء  
حار المذاق .

قلت : — هذا شيء رهيب .

فالت أنا نيكولايفنا : — يعطون المرأة الماخض شعراً لتمضغه .

— لماذا ؟

— الشيطان يعرف ذلك . لقد جاؤوا ثلاث مرات بنساء في لحظة  
الماخض ، كانت الواحدة تنمدد وتبصق . فمها مملوء بالشعر الخشن .  
ثمة عادة تقول إن الولادة تصبح أسير بذلك .

لمعت عيون القابلتين من الذكرى .

جاسنا مطولاً عند الموقد نشرب الشاي ؛ وتابعت الإصفاء نهم  
مسحوراً بأحاديثهم ... تحدثوا عن موضوع نقل المرأة الماخض من

القرية إلى المشفى ، وكيف كانت بيلاجيا إيفانوفنا تترك باب عربتها الخلفي مفتوحاً دائماً لتراقب إن كانوا سيعيدون المرأة الحامل لتلد بين يدي القابلة المنعوذة في القرية ، وكيف أنهم في إحدى المرات أرادوا إعادة الجنين إلى وضعه السليم عند امرأة حامل ؛ فعلقوها من رجليها في السقف ! وكيف أن إحدى القابلات الشعبيات في قرية كريفوف سمعت أن الأطباء يقومون ببزل كيس الجنين ... فتناولت سكين المطبخ وقطعت رأس الجنين ، حتى إن طبيباً مشهوراً ومحكماً مثل ليبونتي لم يستطع إنقاذه ، واكتفى بإنقاذ الأم والحمد لله ، وكيف ؟ وكيف ...

أطفأنا الموقد منذ فترة ، وذهب الضيوف إلى أجنحتهم ... ولمحت الضوء الخافت وهو ينبعث لبعض الوقت من نافذة أنا نيكولايفنا ، ثم ما لبث أن انطفأ . توارى كل شيء عن ناظري . اختلطت الزوبعة الثلجية بالمساء الكاثوني المظلم ، وحجبت الستارة السوداء السماء والأرض عني .

أخذت أتمشى في غرفة مكتبي ، فتصرعت تحت قدمي الأرضية الخشبية كانت الغرفة دافئة بفضل الموقد الهولندي . وكان مسموعاً الصوت الذي يصدره الفأر وهو يقضم بنهم شديد شيئاً ما في إحدى الزوايا .

قلت في نفسي : « سأناضل هذه العتمة المصرية ، سأناضلها بقدر ما يحتفظ بي قدرتي هنا في هذه الغابة . سكر أبيض ... قواوا لي من فضلكم » .

ظهرت في سلسلة أحلامي التي ولدت أمام ضوء المصباح ذي الغطاء المعدني المدمنة الجامعية الضخمة ، كان فيها مشفى كبير ، فيه صالة ضخمة ، أرضية مقطعة على شكل مربعات ، صنادير متألثة بيض نظيفة ، طبيب مسلحد ذو لحية شائبة مديبة تدل على الحكمة ...

إن قرع الباب في لحظات كهذه يرعج ويخيف دائماً .

ارنجفت خوفاً .

— من هناك يا اكسينا ؟! سألت وأنا اتدلى من درابزون الدوج السفلي . . . ( تتكون شقة الطبيب من طابقين : في الأعلى غرف النوم والمكتب ، وفي الأسفل غرفة الطعام ، وغرفة أخرى ليس لها وظيفة معروفة والمطبخ الذي تقطن فيه الطباخة اكسينا وزوجها حارس المستشفى اللئيم )

صلصل المزلاج الثقيل ، ودخل ضوء المصباح يتأرجح في الأسفل ، وهبت ريح باردة .

قالت لي اكسينا :

— وصل مريض

أفرحتني الخبر لاحقاً لأن النوم جافطني ، وسبب لي قضم القمثران والدكريات بعض الكآبة . إضافة الى ذلك فإن كلمة مريض تعني أنه ليس امرأة ، أي ليس أكبر مصيبة . . . ليس ولادة .

— هل يستطيع المشي ؟

— يستطيع . اجابت اكسينا متثابرة .

— إذا دعيه ياتي الى غرفة المكتب .

صر الدوج الختبي مطولا . صعد شخص ضخم ثقيل الوزن ، وجلست في تلك اللحظة إلى طاولة الكتابة محاولاً ألا تهرب من ملاحق الطبية الاءوام الاربعة والعشرون التي عشتها ، ووضعت يدي الأولى على المسامع كما لو أنها على المسدس .

حشرت هيئة ترتدي فروة من جلد الخرفان ، وتنتعل جزمة شتوية طويلة نفسها في الباب ، وقد حملت الهيئة القبة بيدها .

— لماذا اتيت في وقت متأخر يا صديقي ؟

فأجابت الهيئة بصوت رقيق ولطيف :

— أعذرني أيها الدكتور المحترم ، إنها الزوبعة ، المصيبة الكبرى ، هي التي أخرتني ، ماذا كلن يمكنني أن أفعل ؟ سامحني من فضلك .

قلت في نفسي وأنا راؤس نملما : « انه شخص مهذب » .

لقد أعجبتني الهيئة إعجاباً شديداً ، حتى تلك اللحية الشقراء الكثة تركت لدي انطباعاً حسناً . ويبدو أن هذه اللحية قد تمتعت ببعض العناية إذ إن صاحبها لم يعمد إلى تشذيبها فقط ، بل دهنها بشيء ما ، لا يصعب على الطبيب الذي عاش وقتاً قليلاً في القرية أن يحدده انه ريت نباتي .

— ما المشكلة ؟ اخلع فروتك ! من اين أتيت ؟

تموضعت الفروة على الكرسي كجبل .

أجابني المريض وهو يرنو إلي بجزع :

— لقد أميتني الحمى .

— الحمى ؟

— أجل .

— أنت من دولتسوف ؟

— نعم بالضبط ، وأعمل طحافاً .

— حدثني إذا ، كبف تعذبك الحمى ؟

— كل يوم في الساعة النافية عشرة يبدأ رأسي يؤلني ، وتبدأ حركاتي بالارتفاع وتستمر كذلك ساعتين ثم يعود للانخفاض .

« التشخيص جاهز » لمعت فكرة الانتصار في رأسي .

— ألا نسعر بشيء في السلع الأخرى ؟

— هم ... فك الأزرار ! هم ...

لقد استطاع هذا المريض أن يستحوذ على إعجابي منذ اللحظة الأولى وحتى نهاية الفحص ، فبعد أولئك العجائز الجاهلات ، والأولاد الخائفين من خافض اللسان المعدني ، وبعد النكتة الصباحية مع السبلادة نا هنت عينا الفتيتان بالنظر الى هذا الطحان .

كلن حديثه بليفاً ، وبدأ انه متعلم ، حتى إن كل إشارة منه كانت مشبعه بالاحترام للعلم ولا سيما للطب ؛ اي بالاحترام لما احب .

قلت وأنا أنقر على صدره العريض الدافئ :

— اسمع يا عزيزي أنت مصاب بالمalaria ، الحمى المتقطعة ... يوجد لدي الآن عنبر كامل خال من المرضي ، انصحك أن تبقى عندنا هنا وسوف نراقب صحتك كما يجب . سأبدأ معالجتك بالمساحيق ، وإذا لم تجد نفعاً سنجري لك بعض الحقن ولا بد أن ننجح ، ما رأيك ؟ انبقى ؟

اجاب الطحان بلطف شديد :

— اشكرك من كل أعمافي ، كل من سمع بك راض عنك ، يتحدثون عن مساعداتك ... وأنا موافق على الحقن ، المهم أن نتحسن صحتي .

« لا ، هذا والله شعاع مضيء في عتمة هذه القلابة » فكرت بهذا ، وجلست الى الطاولة يملؤني شعور بالرضا ، لكن الذي جاء الى المنفى ليس طحاناً غريباً بل أخ حقيقي جاء ليحل ضيفاً عندي .

كتبت على إحدى أوراق الاستمارات .

« مسحوق الكينا . هـ .

أصرف مشر جرعات . ظرف واحد في منتصف الليل

اسم المريض : الطحان خودوف » .

ثم وضعت توقيعي الشجاع .

وكتبت على استمارة أخرى

« بيلاجيا إيفانوفنا :

ضعي الطحان في العنبر الثاني ، إنه مريض بالمalaria ، أعطه ظرفاً واحداً من الكينا كما هو مفترض قبل أربع ساعات من النوبة أي في منتصف الليل . أقدم لك حالة استثنائية إنه طحان مثقف » .

وبعد أن تمددت في فراشي تسلمت من أكسينيا المتجهممة والمتثابة ورقة كتب عليها :

« عزيزي الدكتور

نقل كل شيء . بيلاجيا إيفانوفنا » .

ثم نمت' .

..... واستيقظت .

أخذت أصرخ :

— ماذا بك ؟ ماذا ؟ ما الأمر يا أكسينيا ؟



وقفت أكسينا خجلة تغطي الأرض السوداء بتنورتها ذات البقع  
البيضاء ، وقد أضاء نور الشمعة الاستياريينية(\*) المهتز وجهها النعيس  
والقلق .

— جاءت ماريا الآن . وهي تقول إن بيلاجيا إيفانا أمرتها أن ترجوه  
الحضور حالا .

— ما الأمر ؟

— تقول إن الطحان في العنبر الثاني يموت .

— ماذا ؟ يموت ؟ كيف ؟ كيف يمكن أن يموت ؟

شعرت قدماي الحافيتان ببرودة الأرض فورا إذ أخطأتا الحذاء .  
كسرت عود ثقاب وعرزته مطولا بفتيلة المصباح حتى اشتعلت فأعطت  
نارا مائلة الى الزرقة . كانت الساعة السادسة تماما .

« ماذا عسى أن يكون الأمر ؟ ماذا ؟ أمن الممكن ألا تكون الماريا ؟  
ميم يعاني إذا ؟ نبضه ممتاز ... »

وخلال ما لا يزيد على خمس دقائق ، خرجت أقفز عبر الفناء المعتم  
تماما بجواربي التي لبستها بالقلوب ، وجاكييتي غير المزور ، وشعري  
الاشعث ، وجزمتى الشتوية ... ودخلت الى العنبر الثاني راكضا .

كان الطحان يجلس على فراشه ، والى جانبه شرشف مجعد ،  
يردتي لباس اللشقى ، ويضيء له مصباح كاز صغير . كانت لحيته الشقراء  
مشعنة ، وبدت عيناه سوداوين كبيرتين ؛ كان يهتز مثل السكران ،  
وينظر حوله برعب شديد ، ويتنفس بصعوبة ...

---

(\*) الاستياريين : مادة يصنع منها الشمع .

نظرت، المعرّضة ماريا ، فافرة فاهها ، في وجهه القرمزي الغامق . . .

تحركت بيلاجيا إيفانوفنا للقلبي دون غطاء رأسها المهود ، وبثوب  
ارتدته على مجل . قالت :

— أقسم يا دكتور أنني لست مخطئة . من كان يمكنه أن يتوقع ؟  
أنت نفسك أكدت أنه مثقف .

— لكن ، ما الأمر ؟

ضربت بيلاجيا إيفانوفنا كفاً بكف وقالت :

— تخيل يا دكتور لقد ابتلع ظروف الكينا المشرة كلها مرة واحدة  
عند منتصف الليل .



كان الفجر شتوياً معتماً . نظف ديميان لوكيتش الأنبوبة المعوية ،  
وانتشرت رائحة زيت الكافور ، وملأ الطست الموضوع على الأرض بسائل  
بني داكن ، تمدد الطحان شاحباً مضى مغطى بالشرشف حتى ذقنه ،  
وظهرت لحيته الشقراء شعناء فوق الشرف . انحنت لأفحص النبض ،  
وتأكدت أن الطحان قد تجاوز محنته بسلام .

سألته : — كيف الحال ؟

اجاب الطحان بصوت خفيض :

— أوه ، آخ ، أشعر بالعتمة المصرية في عيني .

فعقبت غاضباً :

— وأنا أيضاً أشعر بذلك ...

— ماذا ؟ قال الطحان . ( كان لما يزل يسمع على نحره شيء ) . لذا  
صحت في أذنه بشدة :

— اشرح لي مسألة واحدة فقط يا صم . لماذا فعلت ذلك ؟

فاجاب بصوت حزين وبتفوق :

— قلت في نفسي لم التباطؤ في العلاج ، ولماذا أتناول الظروف واحداً  
بعد الآخر ؟ لذا تناولتها كلها دفعة واحدة وانتهى الأمر .

— ياله من شيء مذهل . صحت بصوت مرتفع .

فعلق مساعدتي الوسنان ساخراً :

— نكتة !



« لكن لا ... لا بد ان أكافح ... لا بد .. سأ ... » .

وبعد ليلة شاقة غرقت في حلم لذيذ ، تمددت غشوة العتمة  
المصرية ... وكأنني فيها ... ليس معي سيف ولا سماعة طبية ...  
أمشي ... أكافح ... في الغابة لكنني لست وحيداً بل يمشي معي  
جيش :ديميان لوكيتش ، وآتا نيكولايفنا ، ويلاجيا إيفانوفنا ، يمشي  
الجميع بأرديتهم البيض ... الجميع الى الامام ...

حلم — نكتة طريفة ..





## الطفح النجمي

إنه هو ! هكذا أوجت إليّ عزيزتي . إذ لا يمكن أن اعتمد على معلمي ، فهي غير موجودة بالطبع ، لأنني طبيب مستجد تخرجت من الجامعة منذ ستة أشهر فقط . ختيت أن المس الرجل من كتفه البعاري الدافئ ( مع أنه ليس ثمة ما يخشى ) واكتفيت بأن قلت له آمراً :

— هيا يا عم ، أريني ، اقترب من الضوء !

تحرك الرجل كما أردت تماماً ، فغمر ضوء المصباح الكازي جلده المائل إلى الصفرة . كان الطفح الجلدي الرمري بادياً فوق اصفرار صدره البارز وعلى جنبه . قلت في نفسي « ههنا الطفح كالنجوم في السماء » ، انحنيت بقلب بارد نحو صدره ، ثم حولت عيني عن صدره إلى وجهه . كان وجهه أبيض يومئ إلى أربعين سنة وإلى مثل هذا توميء لحيته اللبدة الوسخة ذات اللون الأشهب ، وعينه الجريئتان المغطاطان بانتفاخات مزمنة . لقد قرأت في هاتين العينين — ويا لدهشتي الشديدة — أهمية معرفة عزة النفس .

رف جفنا الرجل ، ونظر حوله متمللاً ، وبدون اكتراث ، ثم أصلح حزام بنطاله . « إنه هو — السفلس » قلت في نفسي للمرة الثانية جازماً . إنها المرة الأولى في حياتي الطبية التي أصادف فيها هذا المرض . فانا طبيب زميت من مفاصل الدراسة فوراً إلى هذا الريف الثاني في بداية أيام الثورة .

التقيت بهلا السفسلس بمحض الصدفة ، فقد جاءني هذا الشخص  
يشكو من صعوبة في بلع الطعام . ودون وعي أو تفكير في السفسلس إطلاقاً  
طلبت منه أن ينزع ثيابه ، وعندما فعل رأيت هذه الانتفاخات التي تشبه  
النجوم .

ربطت بين بحثة المريض ؛ وحمرة حلقه المنلورة بالشووم بسبب تلك  
البقع البيض الغريبة التي تخالطها ؛ والصدر المرمرى ، فأصبت .

مسحت يدي قبل كل شيء بكرة السليماني . . . . . وتفحصت هلي  
خيالي لدقيقة كلمة فكرة أفني « أعتقد أنه سعل على يدي » . ومن  
ثم قلبت يدي ، بعجز وتأفف ، الملوك الزجاجي الذي استطعت بفضل  
أن أفحص حنجرة المريض . أين يمكنني أن أضعه ؟ قررت أن أضعه على  
حافة النافذة ، على قطعة من الشاش .

قلت :

— هكبل إذا . أتري ؟ هم ، على ما يبدو . . . . . بل أعتقد . . . . . أنت  
مصاب ، أتري ، بمرض ملعون . . . . . السفسلس . . . . .

قلت هذا مرتبكا ، وتهيأ لي أن الرجل سوف يخاف خوفاً شديداً ،  
وسيفضب . . . . . لكنه لم يخف البتة ، ولم يفضب .

نظر إلي بطرف عينه ، كما تنظر الدجاجة عندما تسمع صوتاً  
يناديه . واستغربت عندما لمحت في عينيه اللورتين أنه لا يثق بي .

قلت بلطف :

— أنت مريض بالسفسلس . .

— وما هذا السفسلس : سأل الرجل ذو الطفحات المرمرية .

عند ذلك تراءى أمام عيني بوضوح شديد طرف العنبر الأبيض كالثلج في المشفى الجمعي ، وتراءى المخرج بما فيه من رؤوس الطلاب المكدسة ، واللحية البيضاء للبرفيسور المختص بالأمراض الزهرية ... لكنني عدت إلى رشدي بسرعة لأجد أنني أبعد عن ذلك المدرج الضام وخمسمة فرسخاً ، وأبعد عن أقرب محطة للسكك الحديدية أربعين فرسخاً وأعيش هنا في ضوء هذا المصباح الكلازي .

كانت أعداد غفيرة من المرضى تلفظ بصوت منخفض خلف الباب وهي تنتظر دورها وكانت ندف أول ثلوج الشتاء تتساقط وقد بدأ الظلام يمد أجنحته رويداً رويداً .

طلبت من المريض أن يتابع نزع ثيابه ... حتى وجدت القرحة الأولى التي اندملت ، فغادرتني بذلك شكوكي الأخيرة ، وغمرني الشعور بالاعتزاز ، وهو شعور يرافقني في كل مرة أصل فيها إلى التشخيص الصحيح .

قلت :

— زير ! أنت مصاب بالسفلس ! إنه مرض شديد الخطورة وسينتشر في الجسم كله ، يجب عليك أن تتعالج الوقت طويل .

بندها تلغمت الأثني — قسماً — قرات في نظرتي التي تشبه نظرة الدجاجة استغراباً مختلطاً باستهزاء واضح .

قال المريض :

— حلقي يؤلني .

— بالطبع ، يؤلك بسبب السفلس ، وبسببه أيضاً هذه الطفحات على الصدر . انظر إلى صدرك ...

نظر الرجل شزواً ، ثم حذق دون ان تنطقى نار السخرية في عينيه  
وقال :

— آه لو أنك تعالج لي حلقي .

فكرت وقد نفذ صبري بعض الشيء « كل يغني على ليلاه ، أحدثه  
من السفسل ويحدثني عن الحلق » .

تابعت حديثي بصوت عالٍ :

— اسمع يا عم ! حلقك أمر تلقوي ، نستطيع معالجته ، لكن الشيء  
المهم هو ان تشفى من المرض العام والاساسي ، وهذا يتطلب علاجاً طويلاً  
.. عشرين .

عندها حلق المريض في وجهي وقرأت في عينيه حكمه علي « ماذا  
يادكتور هل جنت ؟ » .

— لماذا هذه المدة الطويلة كلها ؟ كيف يمكن ان اعالج سننتين ؟ اعطني  
من فضلك أي دواء للفرغرة كي يشفى حلقي .

اشتعل كل شيء في داخلي ، واخذت أتحدث بوضوح لأنني لم أهد  
أخشى أن أخفيه بل على العكس ، قلت له إنه يمكن أن يفقد انفعه ، ثم تحدثت  
عما يمكن أن ينتظره في المستقبل في حال إهماله العلاج كما يجب ،  
وطرقت كذلك إلى موضوع علوى السفسل ، وتحدثت مطولاً عن  
الصحون والملاعق ، والأكواب ، والمنشفة الخاصة به .. ثم سألته :

— هل انت متزوج ؟

فأجاب المريض بدهشة :



— نعم متزوج .

فقلت وأنا أشعر باهتياج وغضب :

— إذا أرسل زوجتك إلي فوراً ، إذ يمكن أن تكون هي الأخرى مريضة .

— زوجتي ١٨ سألني المريض وحدثني وقد دهش دهشة شديدة . . . وهكذا تابعنا الحوار ، هو يحدثني في عيني بجفتين مرتخيتين ، وأنا أخلق فيه ، بل الأصح أن هذا لم يكن حواراً بين اثنين ، بل هو حوار بيني وبين نفسي . كان يمكن لأي بروفيسور أن يضع لي الدرجة خمساً في العام الدراسي الأخير . لقد اكتشفت في نفسي معارف هائلة في علم الأمراض الزهرية ، وبذلك فائق ملأت الفراغات المتروكة في تلك الأماكن التي لم تكف أسطر الكتب الجامعية الألمانية والروسية لها . لقد تحدثت عن المضاعفات التي يمكن أن تحدث للمريض إذا لم يتعالج والثناء ذلك أكدت على مرض الفالج الذي يأتي في وقت لاحق . لكن ، ماذا بشأن الأولاد وكيف يمكن إنقاذ الزوجة إذا ما كانت العدوى قد أصابتها ؟ بل هي أصيبت على الأغلب . كيف يمكن معالجتها ؟

في النهاية ، نفذ سيل أفكاري ، وأخرجت بحركة خجلة من جيبتي الدليل الطبي ذا الجلدة الحمراء والأحرف الذهبية ، إنه صديقي المخلص الذي لم أأخل عنه منذ خطوائي الأولى في طريقي الصعبة ، فقد أنقذني مرات كثيرة عندما كان يتعلم علي تماماً معرفة الصفات الطبية الضرورية . وبينما كان المريض يرتدي ملابسه قلبت الصفحات خلسة ووجدت ما أحتاجه إليه . مرهم الزئبق — إنه وسيلة ناجعة .

— سوف تدهن جسمك بالمرهم ، سأعطيك ستة من ظروف هذا المرهم وسوف تستعمل كل يوم ظرفاً كاملاً . . . هكذا . . . وأريته بحماس ووضوح كيف يجب أن يدهن ، مثلاً أمامه عملية الدلك على ثوبي براحتي الفاخرة .

— اليوم تدهن يديك ، وغداً قدميك ، فيما بعد يديك ... وهكذا  
دواليك إلى أن تنتهي من المرات الست ، عندها تستحم وتأتي إلى هنا .  
بكل تأكيد أسمع ؟ بكل تأكيد ! نعم ! كما أنه عليك أن تهتم كثيراً بأسنانك  
بل بفمك عموماً ما دمت تتعالج وسأعطيك شراباً للفرغرة كي تتفرغ بعد  
الطعام ، حتماً ...

— ماذا عن حلقي ؟ سأل المريض بصوت إبح . وجندها لاحظت أن  
المريض قد انتعش عند كلمة غرغرة فقط .  
— نعم نعم الحلق .

بعد عدة دقائق خرجت قروة الخرفان من أمام عيني واتجهت نحو  
الباب فانحشر للقائها رأس نسائي يهم بالدخول ...

بعد بضع دقائق خرجت من غرفة العيادة نصف المعتم المؤدي إلى  
الصيدلية كي أحضر السجائر فسمعت صوتاً مبجوحاً يقول :

— إن علاجه سيء . إنه شاب . اتعرف أنا مريض في حلقي  
وهو يفحص ويفحص مرة الصدر وأخرى البطن ما أكثر المرضى هنا ،  
وهو يمضي نصف النهار يفحص مريضاً واحداً ... أترى بعد قليل  
سيحل الظلام . آه يا إلهي حلقي يؤلني وهو يصف لي مرهماً للأرجل !

وأكد كلامهما صوت نسائي متلعثم بعض الشيء :

— إنه غير مكترث ، غير مكترث . ثم اختفى الصوت فجأة .

كنت أمر بسرعة مرتدياً ثوبي الأبيض ... لكنني لم أحتمل  
فنظرت ، وعرفت — على الرغم من نصف العتمة — اللحية التي تشبه  
الليف الخشن ، والجنين المتورمين ، وعيني الدجاجة . وعرفت الصوت  
المبجوح الرعب . ادخلت رأسي بين كتفي ، وجمعت بدهاء نفسي داخل

ثوبي فاخفيت . لقد كنت مخطئاً وشعرت بألم يوبخني في ضميري . كان الامر مزعجاً تماماً .

أيمكن ان يذهب كل هذا سدى ... ١٤

... لا يمكن إطلاقاً ! أمضيت شهراً كاملاً وأنا أنظر بانتباه رَجُل الامن كل يوم صباحاً في سجل المرضى ، منتظراً ان التقى بكنية زوجة المستمع المنتبه لحواري الداخلي عن السفلس ؛ شهراً كاملاً انتظرت الرجل أيضاً ، لكن احداً لم يأت . وبعد شهر انطفأ في ذاكرتي ولم يعد يقلقني وأصبح منسياً .

... لأن ايلما وايلما تمر ، ولأن كل يوم جديد من أيام عملي في هذه الغابة المنسية كان يحمل لي حوادث عجيبة وأشياء محيرة تجبرني ان انهك دماغي ، تهت مئات المرات ... لكنني ما إن اتيه حتى أشحد همتي من جديد وأبعث ألمي في هذا الكفاح .

الآن ، بعد ان مضت سنوات كثيرة ؛ وبعيداً عن تلك المشفى ذات الطلاء الأبيض المتقشر ... أذكر الطفق الذي يشبه النجوم على صدره . أين هو ؟ ماذا يفعل ؟ ... أعرف ، أعرف ، إذا كان حياً حتى الآن فإنه يسافر هو وزوجته من حين لآخر إلى المشفى القديمة يشكوان من تقرح في الأرجل . واتصور تصوراً واضحاً كيف ينزع ثيابه ويستجدي العطف . والطبيب الشاب ، رجلاً كان أو امرأة في ثوبه الأبيض الرقيق ينحني نحو رجلي المريض ويضغط بإصبعه العظم فوق التقرح باحثاً عن السبب . يجد السبب ويكتب في طبلة المريض ، ( السفلس في مرحلته الثالثة ) ومن ثم يسأل عما إذا كانوا أعطوه مرهماً أسود للعلاج .

وهكذا عندما أتذكره ، يتذكرني أيضاً ، هذا هو العام السابع عشر ، ثمة نلج خلف النافذة ، وستة ظروف مغلفة بورق من النايلون ، ست لفافات لزجة غير مستعملة ...

- كيف لا ، كيف لا ، لقد وصف لي ... سيقول ، ويصدق لكن دون سخرية هذه المرة ، بل بقلق اسود في العينين .

أما الطبيب فسيصف له يود البوتاسيوم ، ومن المحتمل أن يصف له وصفاً أخرى .

ومن المحتمل أيضاً أن ينظر نظرة خاطفة في الدليل الطبي كما كنت أفعل ... سلاماً يا رفيق !

\* \* \*

« ... بالمناسبة ، يا زوجتي الغالية ، أبلغني بحياتي القلبية للمم سفرون إيفانوفيتش ... وعداً عن ذلك يا أمراتي العزيزة ، أذهبي إلى دكتورنا ، وأره نفسك ، إذ إنني منذ ستة أشهر مصاب بمرض بشع هو السفلس . وعندما كنت عندك في العطلة لم أكتشفك بهذا . تعالجي .

زوجك ، أن . بوكوف » .

عشت المرأة الشابة بأسنانها على طرف منديلها الصوفي ، وجلست على المقعد الطويل تجهش بلاكية ، وقد تدلت على جبينها خصل شعر أشقر مبلل بثلج ذائب .

قالت بصوت مرتفع :

- أليس سافلاً ؟ ... ؟

- نعم سافل . أجبت بحزم ،

بعد ذلك خان وقت ، هو أكثر صعوبة ، وأشد تعذيباً ، إذ كان عليّ أن أطمئنها . لكن كيف لي أن أفعل ذلك ؟ تحادثنا طويلاً تحت ضجيج أصوات المنتظرين في المرء الذين لم يعودوا يطبقون صبراً ...

بحث هنالك في أعماق زوحي التي لم تمت بعد تجسده العذابات  
الإنسانية ، عن كلمات دافئة ... حاولت قبل كل شيء أن أقضي على  
شعور الخوف لديها ... وأشارت إلى أننا لا نعرف شيئاً على وجه الدقة  
بعد ، وإننا لا يجوز أن نخلد لليأس قبل المفاجعة في معالجة هذا المرض  
العين - السفلس .

— إنه سافل سافل . نشجت المرأة الشابة وغرقت في دموعها .

فمقبت :

— نعم ! إنه سافل .

وهكذا شتمنا لمدة طويلة بكلمات نابية « الزوج العزيز » الذي جاء  
إلى بيته زيارة ثم رحل إلى موسكو . وفي النهاية جف وجه المرأة من  
الدموع ولم يبق إلا البقع فقط ، وتحرك جفناها بصعوبة فوق عينيها  
السوداوين اليائستين . قالت بصوت معذب متألم :

— ماذا سافعل ؟ عندي طفلان .

قلت :

— اصبري ! اصبري قليلاً سيصبح واضحاً لماذا ستفعلين .

طلبت القابلة بيلاجيا إيفانوفنا ، واختلينا ثلاثتنا في عنبر مستقل  
توجد فيه طاولة لفحص النساء .

آه ياله من وغد ، آه ، وغد . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بقرق وبصوت  
مبحوح . التزمت المرأة الصمت ، كانت عيناها كحفرتين سوداوين  
تحدقان عبر النافذة في الشفق ..

كان ههنا الفحص واحداً من أكثر الفحوصات التي شددت فيها انتباهي شداً كبيراً في حياتي . لم نترك أنا وبيلاجيا إيفانوفنا ، خلية واحدة في جسدها إلا فحصناها ولم نعث في أي مكان على أي شيء يشير الشيكوك .

قلت وأنا أتمنى بلهفة ألا تخلفني آمالي ، وألا تظهر القرحة الأولى المربعة ملتئمة في أي مكان :

— الترين ؟ كفي عن القلق ! ثمة أمل . أمل كبير . صحيح أنه يمكن حدوث كل شيء لكن ، الآن تبدين سليمة تماماً .

سألت بصوت أبح :

— لا يوجد ؟ لا ؟ . وأشرق عينها ، وتوردت وجنتها . لكن ، ماذا لو حصل فجأة ؟ ؟ ؟

فجأة ؟ ؟ ؟

قلت بصوت خفيض لبيلاجيا إيفانوفنا :

— إنني لا أفهم شيئاً ، وبلاستناد إلى ما قلت يجب أن تكون معدية ، لكن ، ليس ثمة شيء .

وردت بيلاجيا إيفانوفنا كالصدى :

— نعم ، ليس ثمة شيء .

وتحدثنا بضع دقائق أخرى مع المرأة عن الجوانب العاطفية في حياتها ، وعن مواهيد مختلفة . . وفي النهاية حصلت المرأة على عقوبة مني بأن فرضت عليها المجيء إلى المشفى دورياً . ثم نظرت إلى المرأة

فرايت انها مفزقة إلى نصفين ؛ إذ أحياها الأمل ، لكنه لم يلبث أن مات .  
بككت من جديد ثم انسحبت كالظل المعتم ؛ ومنذ تلك اللحظة أصبحت  
وكان " سيفاً مسبطاً على رقبتها " ، أخذت تظهر في غرفة العيادة  
كل " سبت صامتة " . ضمير وجهها وفتات عظام وجنتيها نتوءاً حاداً  
وفارت عينها وأحاط بهما ظل ؛ ولكن ، وتدللت شفتها الى الأسفل ،  
من شدة انشغال فكرها . كانت تجلّ شالها بحركات معتادة ، ثم نخرج  
ثلاثتنا الى العنبر النسائي لنفحصها .

لم نعر على شيء بعد فحوصات الأسابيع الثلاثة الأولى ؛ وبعدها  
أخذت تتعافى شيئاً فشيئاً ؛ فانبعث في عينيها القى الحياة ، وعادت  
إلى وجهها نضرتها ، وذهبت عنه التشنجات . كبر أملنا ، وزال الخطر .

وأخذت في السبت الرابع لتحدث بثقة كبيرة ، لأننا قطعنا أكثر  
من تسعين بالمئة من الطريق نحو النهاية الناجحة . وقد مرت مدة  
الواحد والعشرين يوماً الأولى المعروفة ، ولم يبق إلا المفاجآت التي  
يمكن أن تحصل عندما تظهر القرحة الأولى على نحو متأخر جداً . وانتهت  
فيما بعد مراحل المفاجآت والأمال ، ففي آخر زيارة ، رميت المראה  
العاكسة بعد أن فحصت غلجها لآخر مرة وقلت لها :

— تستطيعين الآن تأتي بعد الآن فانت في منأى عن أي خطر ،  
إنّ حفظك رائع .

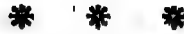
سألني بصوت لا يمكن ان ينسى :

— الست مريضة بشيء ؟

— لا ، أبداً .

لا تكفيني مقدراتي كي اصف وجهها ، اذكر فقط انها انحنت الى  
اسفل حتى خاصرتها ثم اختفت .

غير انها جاءت مرة أخرى تحمل في يديها لفّة فيها رطلان من  
الزبدة وعشرون بيضة . وبعد جدال طويل معها لم آخذ الزبدة  
والبيضات . وكثيراً ما تفاخرت بهذا الفعل في مرحلة الشباب .  
لكن فيما بعد عندما جمعت مراراً في اموام الثورة تذكرت غير مرة مصباح  
الكاز والعينين السوداوين وقطعة الزبدة الذهبية التي تسيل من بين  
الاصابع .



لماذا أتذكرها الآن يا ترى بعد ان مضت سنون كثيرة جداً ؟ ، ولماذا  
أتذكر خوفها الذي فرض عليها اربعة أشهر ؟ فالمرأة تلك كانت المراجع  
الثاني الذي شككت بإصابته بهذا المرض الذي بدلت له أفضل أيام  
حياتي ، أما الزبون الأول فقد كان ذلك ... صاحب الطفح النجمي  
على الصدر .

وهكذا كانت هي الثانية ، وكانت الاستثناء الوحيد ، لقد خافت ،  
الوحيدة التي خافت في ذاكرتي التي تحتفظ بضوء مصباح الكاز الذي  
كان يضيء عملنا نحن الأربعة : ( بيلاجيا إيفانوفنا ، وآنا نيكولايفنا ،  
وديميلن لوكيتش ، وأنا ) ...

في تلك المرحلة ، عندما كانت تمر ببطء أيام السبت التي تعذبها .  
لأنها تنتظر عقوبة الإعدام ، كنت أبحث «منه» في ليالي الجريف الطويلة .

كان الموقد الهولندي يدفع شقة الدكتور حيث يخيم الهدوء .  
وتخيلت أنني الوحيد في العالم الذي يجلس إلى جانب المصباح ... هناك  
في مكان ما تسير الحياة بصخب شديد أما هنا عندي فقد كان المطر ينهمر



منحرفاً ليخربش على زجاج النوافذ ... لكنه ما لبث أن تحول إليّ  
ثلج صامت ... كنت اجلس سلعت طوال أراجع في سجلاب المرضى  
القديمة التي تعود لأعوام خمسة خلت ... وقد مرت أمام عيني آلاف،  
بل عشرات آلاف من الأسماء ، وكنت أعثر عليه كثيراً في هذا العدد الهائل  
من المرضى . كانت تظهر بين الحين والآخر أسماء أمراض تقليدية مملّة  
« التهاب قصبات » ، « التهاب حنجرة » ... وغير ذلك .

آه ، ها هو ذا ... « سفلس في المرحلة الثالثة » وعلى الجانب  
كتب بحروف كبيرة وخط معتاد :

« مرهم أسود » ثلاث غرامات .

وتراقصت أمام عيني مرات كثيرة الالتهابات الشعبية ، والنزلات  
الصدرية . لكنها تنقطع فجأة ليظهر « السفلس » من جديد .. وكانت  
أغلب الملاحظات تشير إلى السفلس في طوره المرضي الثاني ونادراً ما يلاحظ  
الطور الثالث . وعندها كلن البوتاسيوم اليودي هو الوصفة العلاجية  
الأكثر أهمية .

وبقدر ما كنت أتابع المراجعة في مجلدات سجلات أسماء المرضى  
المنسية في العلية والتي تفوح منها رائحة العفونة ، كان الوضوح يزداد  
في رأسي القرم . لقد بدأت أفهم أشياء صعبة .

لكن ، أين الإشارات إلى القرحة الأولى ؟ لا يبدو أن ثمة إشارات  
قبيح آلاف وآلاف الأسماء قلما تمر ملاحظة تشير إلى القرحة الأولى .  
أما المصابون بعدوى السفلس في مرحلته الثانية فهم كثر . ماذا  
يعني هذا ؟ هم ... إليكم ما يعنيه ...

— هذا يعني ، قلت لنفسى في العتمة والفقران تلتهم بقايا الخضار  
وتفرض رفوف المكتبة — هذا يعني أن الناس هنا لا يعرفون شيئاً عن

السفلس وإن القرحة الأولى لا تخيف أحداً . نعم ، ومن ثم فإنها تجف وتلتئم ويبقى الندب ... ، وبعد ، ألا يوجد شيء ؟ بالطبع لا ، ثم شيء ، إذ تنفجر المرحلة الثانية الحادة من السفلس ، عندما يلتهب الحلق ، وتظهر في الجسم بثور نازة ، وعندها يذهب سيمون ختوف / ٣٢ سنة / إلى المشفى فيعطونه المرهم الأسود ... نعم !

اتسع محيط الضوء على الطاولة ، واختفت المرأة الشوكولاتية المرسومة في قاع صحن السجائر تحت كومة الأعقاب .

— لا بد أن أجد هذا ال سيمون ختوف .

خشخت بين يدي أوراق سجلات المرضى التي أصابها بعض العفن .

١٧ / حزيران / ١٩١٧ استلم سيمون ختوف ستة ظروف من مرهم الزئبق العلاجي المصنع منذ زمن خصيصاً لإنقاذ سيمون ختوف .

إنني متأكد أن الطبيب الذي كان يعمل مكاني هنا قال لسيمون وهو يعطيه المرهم :

— عندما تدهن ست مرات عليك أن تستحم وتأتي إلي من جديد ، أسمع يا سيمون ؟ وبالطبع ، أقسم سيمون ، وشكر الطبيب بصوت أبح ...

تتابع التصفح : بعد حوالي عشرة إلى اثني عشر يوماً يجب أن يظهر سيمون في السجلات ... إذا لتتابع ونر ... نرى ... دخان .. خشخت الأوراق . آخ ، لا يوجد سيمون ! لا يوجد اسم سيمون بعد عشرة أيام ، ولا بعد عشرين يوماً ... إنه غير موجود نهائياً . آخ يا لسيمون اللباس ، يبدو أن الطقحات الندية أخذت تجف وتنظف على جسمه كما تنظف النجوم عند الفجر ، وسيموت بكل تأكيد ، ... سيموت

سيمون . ومن المحتمل أن أرى سيمون ههنا بقروح المرحلة الثالثة لمرض  
السفلس عندي في العيادة . هل برئت عظام أنفه ؟ وهل يؤبّاه متمالان ؟  
تعس أنت يا سيمون !

لكن ، غير سيمون ، هذا إيفان كاربوف . ولماذا يمرض واحد مثل  
إيفان كاربوف ؟ نعم ، اسمحو لي ، ولماذا وصف له الكالوميل\* مع سكر  
اللين بجرعات قليلة ؟ أعرف لماذا إذا ، لأن عمر إيفان كاربوف عامان ! .  
وهو مريض بالسفلس في مرحلته الثانية .

قضاء وقدر ! جاؤوا بإيفان كاربوف مغطى بالنجوم ، تحمله أمه  
بين يديها ، وهو يرفض الاستسلام لأبادي الأطباء التي ننوي الإمساك به  
كل شيء مفهوم .

— أمرف ، اخمن ، فهمت أين كانت عند الطفل ذي العامين المقرحة  
الأولى . لقد كانت في فمه ، وقد أصيب بالعدوى بسبب اللعقة .

علميني أيتها الغاية ! علمني يا صمت البيت الريفي !

ستتحدث أوراق السجلات القديمة بالكثير الكثير مما يثير الطبيب  
الشاب . فوق اسم إيفان كاربوف كن اسم :

« أفدوتيا كاربوف ، ٣٠ عاماً » .

من هي ؟ آه ، مفهوم . إنها أم إيفان ، إيفان الذي بكى بين يديها .  
وتحت اسم إيفان كاربوف كتب اسم :

« أفدوتيا كاربوف ، ٨ سنوات » .

---

\* الكالوميل : كلوريد الزئبق . دواء مضاد للميكروبات .

وهذه من تكون ؟ اخته ! كالوميل ...

العائلة كلها موجودة . العائلة ينقصها شخص واحد فقط الاب  
كاربوف ٣٥ - ٤٠ سنة، لكن اسمه غير معروف . ما اسمه ؟ سيدر  
بيوتر ... هذا ليس مهماً .

« زوجتي العزيزة ... مرض ملعون ... السفلس » .

هذه هي الوثيقة ، كل شيء واضح في الدهن ؛ وعلى ما يبدو وصل  
من الجبهة الملعونة « ولم يكشف سرّه » ومن المحتمل انه لم يعرف هذا  
السر كي ييوح به . ثم سافر ، وهنا انتشر المرض ... افدوتيا ... نم  
افدوتيا ، ومن افدوتيا إلى إيفان ... وعاء حساء الكرب ، منشقة ...

هاكم اسرة اخرى ، وغيرها ، وغيرها أيضاً . وهاكم هذا العجوز  
عمره سبعون عاماً . « السفلس في المرحلة الثانية » عجوز . ما ذنبك ؟  
ليس لي ذنب . في الكأس المشتركة . ليس جنسياً ، ليس جنسياً .  
كل شيء واضح ، واضح وأبيض مثل فجر تشرين الباكر . معنى ذلك  
انني جلست طوال ليلتي وحيداً أراجع الأسماء في سجلات المرضى ،  
وأراجع الكتب التعليمية الألمانية الرائعة ذات الرسوم الواضحة .

وثناء سيري إلى عرفة النوم صرخت ، هتفت :

— ساكافح ضده ... سائاضل .

\* \* \*

كي تناضل شيئاً ما لا بد أن تراه . وهو لم يبطيء المجي . ودبت  
الحركة على طريق المزالج ، وحدث أن أتى الي للعلاج مئة إنسان في اليوم

كلن النهار يبدأ ايض سديمياً ، وينتهي بظلام دامس عندما نتر  
آخر عربات التزلج في طريق عودتها من المشفى .

كان يمر من أمامي وبخبت ، وبصور مختلفة ... إما أن يظهر على شكل قروح مائلة إلى البياض في الخلق عند فتاة مراهقة ، أو على شكل أرجل متقوسة كالسيوف أو على شكل قروح مترهلة تحت الجلد في رجلي عجوز صفراوي . أو على شكل حطاطات نازة على جسد امرأة نضر . وأحياناً يحتل الجبين باعتزاز وكأنه تاج يشبه كوكب الزهرة .

كان في كثير من الأحيان انعكاساً على الأولاد بسبب حياة آبائهم الظالمة آبائهم الذين يحملون أنوفاً تشبه سروج القوزاق .

وعدا عن ذلك فقد تسلل خفية دون أن لاحظها . آه ، فقد كنت آتياً من مقاعد الدراسة المتوترة ! ومع ذلك وصلت بعقلي ووجدتي الى كل شيء . كان يسري هناك في مكان ما ، في العظام ، في المخ ... لقد عرفت الكثير .

— طلبوا مني وقتها ان ادهن جسدي ...

— بالمرهم الاسود ؟

— بالمرهم الاسود ، يا أبتنا ، بالاسود .

— بشكل متصالب ؟ اليوم الايدي وغداً الأرجل ... ؟

— بالطبع ، لكن كيف عرفت انت يا سيدي ؟ ( متعلّقاً ) .

« وكيف لا أعرف ؟ آخ . وكيف لا أعرف ، ها هي ذي — المرحلة الثالثة »

— امرضت بالسفلس ؟

— ماذا تقول ؟ ! ... لم نسمع في عشيرتنا بمرض كهذا !

— هه . . . إذا يؤلك حلقك .

— الحلق ؟ نعم ، آلمني حلقي في العام الماضي .

— هه . . . وهل اعطاك ليونتي ليونتيغيتش مرهما ؟

— بالطبع ! اسود كالحداء .

— سييء ، عماه ، وهل استخدمته ؟ آخ سييء !

لقد بددت عدداً هائلاً من الكيلوغرامات من هذا المرهم الأسود ، وكثيراً ما وصفت البوتاسيوم اليودي . وكثيراً ما تلفظت بألفاظ غاضبة . استطعت أن أعيد بعض المرضى بعد الدهنات الست الأولى ، واستطعت أن أقدم لبعضهم الجرعات الأولى من العلاج بالحقن ، لكن ليس للجميع ولبس بصورة تامة .

لكن عدداً كبيراً منهم تسلل من بين أصابعي ، كالرمل في الساعات الرملية ولم استطع العثور عليهم في هذا السديم الثلجي . آخ لقد أقتنعت تماماً أن السفلس هنا مخيف جداً ، وهو مخيف لأنه لا يخيف أحداً من المصابين به . لهذا بالذات تحدثت في بداية ذكرياتي هذه عن المرأة ذات العينين السوداوين وتذكرتها باحترام شديد ؛ احترام شديد لخوفها بالذات . لكنها كانت واحدة لا غير .

\* \* \*

أصبحت أشد عوداً وأكثر انتباهاً ، وأكثر تجهماً في بعض الأحيان . كنت أحلم بذلك اليوم الذي ستنتهي فيه فترة عملي هنا ، وأعود الى المدينة الجامعية ، هناك يصبح كفاحي أسهل بكثير .

في يوم من تلك الأيام الحالكة دخلت امرأة الى غرفة العيادة ، كانت شابة جميلة الظهر ، تحمل بين يديها طفلاً في الفلغاف ، واندفع وراءها

طفلان يتعمران ويتخبطان بجزمتيهما المفرطتي الطول . يمسكان بتنورتها  
الزرقاء البارزة من تحت فروتها الفصيرة .

قالت المرأة ذات الخدين المنوردين بوقار :

— الطفح هاجم الأولاد .

لمست بحذر جبين الطفلة المتمسكة بالتنورة فاخبتأت في ثنايا التنورة  
حتى أخفتت عن الأنظار ، وبرز وجه سمج غير عادي يشبه فنانكا(\*)  
مستطلعا من جانب التنورة الثاني . لسته : حرارة الجبين عادية تماما  
وليست مرتفعة .

— اكتفي يا عزيزتي ، عن الطفلة المفوفة .

فكت القماط عن الطفلة فتكشف الجسد العاري من بثور لا يقل  
عددها عن نجوم السماء في ليلة جليدية باردة ، انتشرت هذه  
البنور على كامل الجسد ، واشتفخ الى جانبها حبوب وردية من الأرجل  
حتى الرأس .

فكر « فيانكا » ان يدافع عن نفسه فبكى .

جاء ديميان لوكيتش كي يساعدني ...

سالت الأم وهي تنظر بعينيها المطمئنتين :

— اهو الرشح ؟

دمدم ديميان لوكيتش وهو يلوي فمه باشمئزاز وحزن :

— كل مدينة كاربوف مصابة بالرشح !

---

(\*) فيانكا : لعبة لها هيئة مدبية ، وبسبب نقل رجليها الشديد نبقى وافلة دائما .

— ماذا يكون إذا ؟ سألت الأم بينما كنت أنظر في جبينها وصدرها  
الذين انتشرت فيهما البقع .

البسي ! قلت لها .

جلست بعد ذلك إلى الطاولة ، ووضعت رأسي بين يدي وتشاءبت  
( لقد كانت واحدة من بين الأخريات إذ كان رقمها ٩٨ ) ، ثم قلت :

— أنت مريضة ، يا خالة ، وكذلك أولادك « بمرض ملعون » ؛  
مرض مخيف وخطير . يجب عليكم جميعاً أن تبدؤوا بالعلاج من الساعة .  
علاج طويل .

من المؤسف أن الكلمات لا تستطيع أن تصور عدم الثقة في عيني  
الحرمة الجاحظتين الزرقاوين . فتلت الطفل كالحطبة بين يديها ونظرت  
ببله في رجليه وسالت :

— من أين هذا ؟ ثم ضحكت ضحكة ساخرة ملتوية .

أجبتها وقد بدأت ادخن السيجارة رقم ٥ . لهذا اليوم :

— من أين ؟ ! لا فائدة من هذا السؤال . الأفضل أن تسألي ماذا  
سيحدث مع أولادك إذا لم يتعالجوا .

فأجابت وقد أخذت تلفّ الطفل بالقماط :

— ماذا يمكن أن يحدث ؟ لن يحدث شيء ...

أذكر تماماً ، وكأن الأمر يحدث الآن أن ساعتني كانت موضوعة على  
الطاولة أمام عينيّ . وأنني لم أتحدث أكثر من ثلاث دقائق حتى أخذت  
المرأة تنحب وأنني كنت سعيداً جداً لتلك الدموع ، إذ لم يكن ممكناً



الاستمرار في الحوار الى آخره إلا بفضل تلك الدموع التي سببتها  
- عن قصد - كلماتي القاسية والمخيفة .

وهكذا بقوا في المشفى .

- من فضلك يا ديميان لو كيتنس ضعهم في الجناح المستقل ،  
وسنتدبر الأمر فيما يخص مرضى التيفوئيد ، سنضعهم في العنبر الثاني ،  
وسأذهب غداً الى المدينة كي احصل على الموافقة لفتح قسم خاص ونابت  
لمرضى السفلس .

تفجر اهتمام عظيم في عيني مساعدي وقال :

- ماذا نقول يا دكتور ( كان شديد التشاؤم ) ؟ وكيف سنستطيع  
تدبر الأمر وحدنا ؟ وماذا عن الأجهزة . لا يوجد ممرضات إضافيات ...  
والطبخ ... ؟ والادوات والحقن ؟ ! هزرت رأسي بغباء وعناد وقلق ..

سأحقق ذلك .

\* \* \*

مرّ شهر ...

كان ضوء المصابيح ذات الاغطية الصفيفية مناراً في الغرف الثلاث  
للقسم الجديد المغمور بالثلج . كانت غطاءات الأسرة البيضاء ممزقة ،  
وكان ثمة محقنان فقط لا غير ؛ واحد صغير يتسع لغرام واحد ، وآخر  
لخمس غرامات - من نوع ليونير - . بكلمة واحدة إنها مأساة تدعو إلى  
الشفقة حملها الثلج الى هنا . لكن ، ... ثمة محقنة تقف باعتزاز وحدها ،  
استطعت بفضلها - كنت أكاد اتجمد من الخوف - أن أقوم بحقن  
« الملح الذهبي » وهي حقن جديدة وصعبة وملغزة بالنسبة إلي .

وبعد ! كان ضميري مطمئناً . فقد رقد في هذا القسم سبعة رجال  
 وخمس نساء ، ويوماً عن يوم أخذت تتلاشى أمام عيني الطفحات النجمية .

وفي إحدى الأمسيات ، كان ديميان لو كيتش يمسك المصباح الصغير  
 ليلسلط الضوء على فيانكا الخجول ، كان فمه مدهوناً بعصيدة السميد ؛  
 لكن ، لا نجوم عليه البتة . . . وهكذا مرّ الأربعة تحت ضوء المصباح . . .  
 ليريحوا ضميري .

سالت الأم وهي تصلح بلوزتها .

— سنخرج غداً من المشفى من كل بدّ .

فاجبتها :

— لا ، لايجوز ، لابد من الصبر على متابعة برنامج العلاج .

— لا ، لست موافقة ، لدينا أشغال كثيرة في البيت . شكراً للمساعدة  
أخرجونا غداً . نحن الآن معافون .

حمى الحوار فأصبح كالنار وانتهى على النحو التالي :

قلت لها وأنا أشعر أنني أصبحت أحمر :

— أنت تعرفين ، أنت تعرفين . . . أنت حمقاء ! . . .

— لماذا هذه الشتائم ؟ أهذه هي العادة عندكم ؟ تشتمون . . .

— وهل يكفي أن أقول لك « حمقاء » أنت لست حمقاء ، بل . .

بل . . . انظري الى فيانكا ! هل نريدين أن تقتليه ؟ هذا ما لن أسمح  
 لك به .

وبعدها بقيت في المشفى عشرة أيام أخرى .

عشرة أيام ، وبعدها لن يمنعها أحد عن الخروج وأنا كفيل بذلك .

لكن ، كونوا على ثقة كان ضميري مطمئناً بل انني لست نادماً على استخدام كلمة حمقاء . ماذا يمكن أن تكون الشنائم بالمقارنة مع هذا الطفح النجمي ؟

وهكذا مضت السنون . منذ زمن بعيد فرقت الأقدار والأيام الصعبة بيني وبين القسم المغفور بالنلج . ماذا يمكن أن يكون هناك ، الآن ، ومن ؟ أنا واثق أن الأمور أفضل الآن . البناء مكلس بالابيض ، ومن المحتمل أن تكون البياضات جديدة . لا يوجد كهرباء بالطبع . ومن الممكن انه ، وأنا أكتب هذه السطور ، ثمة رأس شاب ينحني على صدر مريض ليفحصه . ومصباح الكاز يلقي أشعته الصفراء على جلد المريض المصفر .

سلاماً يارفيقي .

\* \* \*



## المنشفة ذات الديك

ليس لدي ما اصفه لمن لم يقطع على ظهور الجياد الطرق المقفرة التي  
تعبر الغابات الكثيفة ؛ فهو على كل حال لن يفهم شيئا . اما من قطعها  
فلن اذكره .

اقول باختصار : قطعت برفقة الحوذي في ليلة كاملة القراسخ  
الاربعين التي تفصل بين مدينة غراتشيفكا مركز القضاء ومشفى  
( مورينسك ) . ومما يثير الدهشة اننا كنا في الساعة الثانية يوم السادس  
عشر من ايلول عام / ١٩١٧ / عند آخر حانوت على حدود تلك المدينة  
الرائعة غراتشيفكا ، واننا في الثانية وخمس دقائق في السابع عشر من  
ايلول من عام / ١٩١٧ / نفسه الذي لا ينسى كنا نقف في فناء مشفى  
( مورينسك ) على الاعشاب الميتة التي يظلمها مطر ايلول . كنت اقف وقد  
تصلبت رجلاي من شدة البرد إلى درجة انني لم ابرح الفناء ، بل اخذت  
التذكر تذكراً مبهماً مقلباً صفحات كتبي الجامعية ، ومحاولاً بغباء ان  
اتذكر : احقاً يوجد مرض يؤدي إلى تصلب انسجة العضلات ، أم ان  
الامر مجرد حلم تراءى لي البارحة في قرية غرابيلوفكا ؟ وما اسم هذا  
المرض اللعين باللاتينية ؟ . كان الألم الذي لا يحتمل في كل عضلة من  
عضلات رجلي يذكر بألم الأسنان . أما اصابع رجلي فلا ضرورة للحديث  
عنها إذ لم تعد تتحرك في الحذاء واستسلمت لحالتها . اعترف انني في  
لحظة الضعف هذه لعنت الطب ، ولعنت طلب الانتساب إلى الجامعة الذي  
قدمته منذ خمس سنوات إلى رئيسها .

في تلك اللحظات انهمر عليّ مطر غزير كأنه يمر عبر منخل ، فانتفخ  
معدفي واصبح كالإسفنجة . حلولت مبثاً ان امسك بأصابع يدي اليمنى

فبضة الحقيبة ، فبصقت في نهاية الأمر على العشب المبلل إذ إن أصابعي كانت عاجزة عن إمساك أي شيء ، وتذكرت من جديد - أنا الممتلىء بالمعارف المختلفة التي حصلتها من كتب الطب الغنية - مرض النسل . ففكرت فأنظا ثم قلب في نفسي إن الشيطان وحده يعرف لماذا أفكر في هذا المرض .

فلت وفد ازرققت شفطاي وتجمدتا :

- يجب اع . . اعتياد السفر على هذه الطر . . طرقات .

قلت هذا وأنا أحملق بحقد إلى الحوذى ، دون أن أعرف سبباً لحقدى هذا ، علما أنه - والحق يقال - لا يحمل ذنب هذه الطريق .

أجاب الحوذى وهو بالكاد يحرك شفطيه اللتين يعالوهما شاربان صفران شائبان :

- آه أيها الرفيق الدكتور ! منذ خمس عشرة سنة وأنا أسافر على هذه الطريق ولم اعتدها بعد .

ارتعست ونظرت بأسى نحو البناء الأبيض المحفتر ذي الطابقين ، ونحو الجدران الختسية غير المطلية لبيت مساعد الطبيب ، ثم نحو مقرتي المقبل : إنه بناء شديد النظافة مؤلف من طابقين ، ذو نوافذ غامضة تشبه التوابيت . تنهدت تنهيدة طويلة . عندها لاحظت في ذهني على نحو غائم - بدل الكلمات اللاتينية - عبارة جميلة كان قد غناها في ذهني المعتل من البرد والارتجاف مغن ذو فخذين أورفين ، يغني بصوت رجولي مرتفع :

« مرحباً بك . . . أيها الملا . . جا المقد . . س . . » .

وداعاً ، وداعاً إلى أجل بعيد ، وداعاً يا مسرح البلشوي المذهب  
الجميل ، وداعاً يا يا موسكو ، أيتها الواجهات ... آه وداعاً ...

« قلت في نفسي بياس وحنق : سأرتدي فروة في المرة القادمة » .

نم حملت الحقيبة من أحزمتها بيدي المنصليتين وقلت في نفسي :  
سأرتدي في المرة القادمة فروتين على الرغم من أن المرة الثانية ستكون في  
تشرين الأول ، وإن أسافر قبل شهر من الآن إلى غراتشيفكا ...  
نصورو! ... كان علينا أن ننام ... لقد قطعنا عشرين فرسخاً في الليلة  
مظلمة كظلام القبر حتى وصلنا إلى غرايبوفكا ، وفيها كان يجب أن  
ننام ... وقد سمح لنا المدرس ... وانطلقنا منها اليوم في السلبعة  
صباحاً وهكذا نسافر ... يا إلهي يا قديسين ... بسرعة أشد بطئاً  
مما لو كنا نمشي ... تتخبط المجلة الأولى في حفرة ، وتطير الثانية في  
الهواء ، وتقع الحقيبة على القدمين ... بو ... فأميل على جانبي ، لم  
على الآخر ، ويندفع أنفي إلى الامام ، ويرتد قفاي إلى الخلف ، في حين  
ينسكب المطر من فوق وينسكب فترتجف العظام . هل كنت أنصور من  
قبل أن المرء يتجمد في السهوب في منتصف أيلول الحار كما يحدث في  
الشتاء القارس ؟! بلبو أنه يتجمد ... وإلى أن يحين وقت الموت برداً  
فإنه يرى أشياء لا تتغير : « عن اليمين سهوب مقفرة محدودة ، وعن  
اليسار ادغال باهتة بجوارها خمس مزارع رمادية مهملة أو ست ، يبدو  
أن لا روح حية فيها ... سكون ... إنه السكون المطبق ... » .

استسلمت الحقيبة في نهاية المطاف . إذ دفعها الحوذي ببطنه  
نحوي ، وأردت أن اتناولها من أحزمتها ، لكن يدي تمنعت عن العمل ،  
فهوت الحقيبة المنتفخة رفيقة دربي المملوءة بالكتب والامتعة المختلفة على  
العنكب بعد أن صدمت رجلي .

— آه يا إلهي ، قال الحوذي خائفاً ، لكنني لم أبدر أي اعتراض إذ  
كانت الأمور كلها منساوية عندي . حتى لو قطعت رجلاي فلن  
أشعر بهما .

وشرع الحوذي يصرخ ويضرب الباب بيديه كما يضرب الديك  
بجناحيه :

— هيه ، هل من أحد هنا ؟ هيه لقد وصل الطبيب !

عندها ظهرت بعض الوجوه من خلال الزجاج المعتم لبيت مساعد  
الطبيب ؛ التصقت بالزجاج . ثم صرّ الباب ورأيت كيف جرى نحوي على  
العشب شخص يرتدي معطفاً بالياً وينتعل جزمة مهترئة . نزع قبعته  
باحترام وسرعة ، ثم اقترب مني خطوتين ، والسبب ما ابتسم ابتسامة  
خجولة ورحب بي بصوت أجش قائلاً :

— مرحباً بك أيها الرفيق الدكتور !

سألته : — من أنت ؟

فقدم الشخص نفسه :

— أنا إيفوريتش ، الحارس هنا . إننا ننتظركم ننتظركم !

وهل الفور أمسك بالحقيبة ووضعها على كتفه . وانطلق في حين  
رحلت أخرج خلفه محاولاً عبثاً أن ادس يدي في جيب البنطلون لأخرج  
ـ افظة نقودي .

يحتاج المرء في الحقيقة — أشياء قليلة جداً ، وقبل كل شيء يحتاج  
النار . أذكر أنني عندما انطلقت من موسكو الى هذه الغابة النائية  
( مورينسك ) كنت قد صممت على أن أكون وقوراً . لكن التسباب في  
هيبتي قد أفسد علي حياتي منذ اللحظات الأولى . إذ كن عليّ أن أعرف  
بنفسي امام كل شخص .

— أنا الدكتور فلان .



وكان لا بدّ لأي شخص يسمع ذلك من أن يرفع حاجبيه ويسأل :

— أحقاً ذلك ؟ ظننتك لما نزل طالبا .

— لا ، فقد أنهيت دراستي . كتب أجيب عاجساً ثم أفكر : « لا بد لي من اقتناء نظارتين ، هذا هو الأمر » لكنني لم أكن في حاجة لشراء نظارتين ، فعيناي سليمتان ، لم تعكر صفوهما تجارب الحياة . ولأن النظارتين لن تساعداني في شيء ، بل ستثير انتباه الآخرين ومداعباتهم التي لا أستطيع الرد عليها ، حاولت أن ألتمز سلوكا خاصا يستدعي الاحترام : كان أتحدث باقتضاب واتزان ، وأن أقبل من الحركات المندفعة ما أمكن ، والأأعدو كابن ثلاثة وعشرين علماً أنهى الجامعة لتوه بل أمسي بهلوه .

أما الآن فقد فهمت بعد مضي سنوات عدة أن سلوكي هذا كان شديد السوء . وها أنذا أنقض الآن مخططي السلوكي غير المكتوب إذ أجلس متكوماً على نفسي مرتدياً جواربي فقط — ليس في أي مكان من غرفة المكتب بل في المطبخ أمد نفسي — كعابد النار — بشوق وإلهام نحو حطب أشجار البتولا في الموقد . إلى يساري تمة برميل مقلوب رأساً على عقب . وضعت عليه حداثي ، وبالقرب منهما ديك منتوف مسلوخ ذو رقبة مدماة ، وقد تكوم إلى جانبه ريشه المختلف الألوان .

وفي واقع الأمر ، فقد قمت — على الرغم من حالة التجمد التي أنا فيها — بسلسلة من الأعمال التي تتطلبها الحياة : اذ كلفت أكسبنيا ذات الأنف الحاد ، زوجة إيفوريتش بمهام الطبخ لي ، ونتيجة لذلك تحرّ الديك تحت يديها . فقد كان لا بد لي من أن أكل شيئاً ، وكذلك فقد تعرفت على الجميع هنا : مساعدتي ديميلان لوكيتس ، والقبائلين بيلاجيا وإيفانوفنا وأنا نيكولايفنا ، وطففت في أنحاء المشفى فاقنعت اقتناعاً تاماً أنه مجهز تجهيزاً جيداً بالادوية اللازمة . وبالقدر نفسه كانت قناعتني تامة ( بيني وبين نفسي بالطبع ) أنني أجهل كيفية استخدام

الكثير من هذه الأدوات البراقة الجديدة . ولا تكمن المصيبة في أنني لم  
المسها من قبل بل في أنني - بصراحة - لم أرها بتاتاً .

دمدمت بأسلوب شديد الإيحاء :

- هم .. هم ... يبدو أن لديكم تجهيزات طبية رائعة .

فعلق ديميان لوكيتش بأسلوب لطيف :

- كيف لا ؟! جمع هذه الأدوات كلها الطبيب السابق ليوبولد  
ليوبولدوفيتش . فقد كان يجري العمليات طوال النهار .

عندها نظرت أسيان نحو الخزائن ذات المرايا المتلألئة ، وشعرت  
أن العرق البارد قد للني .

بعد ذلك طفنا العنابر الخالية من المرضى . ففهمت فهما أكيداً أنها  
تتسع لأربعين شخصاً بسهولة واسألني ديميان لوكيتش بقوله :

- كان ليوبولد ليوبولدوفيتش يضع فيها خمسين مريضاً .

ولسبب ما عقيت أنا نيكولايفنا ذات التاج الأبيض من الشعر  
الاشيب :

- أنت دكتور شاب ... شاب إلى حد يثير الدهشة ... إنك  
تبدو طالباً .

« قلت في نفسي » اللعنة « يا للشيطان . لقد تأمروا علي ، والله » .

فقلت بقرع وجفاف :

- هم .. م .. م .. لا ، أنا ... أعني ... أنا ... نعم ..  
شاب ...

من ثم ذهبنا الى الصيدلية فلاحظت فوراً انه لا ينقصها إلا حليب العصفورة فقد كانت غرفتها المعتمتان تعبقان بروائح الأعشاب المنتشرة واكتظلت رفوفهما بما شئت من الادوية ، حتى تلك الادوية الأجنبية المخترعة حديثاً ، ولا أدري إن كان ثمة دافع لان اضيف انني لم أسمع عن هذه الادوية شيئاً البتة .

قالت بيلاجيا ايغافونفا بعزاز :

— كان ليوبولد ليوبولدوفيتش يصفها للمرضى .

قلت في نفسي وأنا أشعر باحترام شديد تجاه ليوبولد المجهول الذي رحل من هنا بهدوء : « كان ليوبولد هذا شخصاً عبقرياً بحق » .

ناهيك عن حاجة الإنسان إلى النار فإنه يحتاج إلى التأقلم أيضاً كنت قد التهمت الديك منذ وقت قصير ، وكان ايغوريتش قد حثاً فراشي بالحشية وغطاه بالملاعات ، وكان المصباح مضاء في غرفة المكتب في منزلي هذا . جلست في غرفة المكتب انظر مسحوراً اتفحص الإنجاز الثالث لليوبولد الاسطوري : فقد كانت رفوف المكتبة مملوءة بالمكتب الى آخرها ، واستطعت أن أحصي بسهولة تلاين كتاباً من كتب المعلومات الأساسية في الجراحة باللغتين الروسية والألمانية ، وغير ذلك من كتب الطب الباطني ، والأطالس الرائعة للأمراض الجلدية !

مضى المساء ، وشعرت بالآلفة .

قلت في نفسي بانزعاج وغضب : « لست مدنباً في شيء ، فأنا أحمل شهادة الدبلوم ، وعندى خمس عشرة خمسة(\*) . وقد نبهتهم هناك في المدينة الكبيرة انني أرغب أن أكون طبيباً مساعداً . لا . ابتسموا وقالوا : « ستأقلم » . هكلا اذن !! تأقلم . وماذا لو اتوني بحالة

❖ خمسة : هي العلامة التامة في نظام الامتحان الروسي . ( المترجم )

مذكرات طبيب مـ

فتاق ؟ اشرحوا لي كيف « سأأقلم » معها ؟! اشرحوا لي خاصة :  
ما شعور المريض بالفتاق وهو بين يدي ؟ هل سيتأقلم هو مع العالم  
الاخر ( وشعرت بالبرد يلسع ظهري ) . . .

وماذا عن التهاب الزائدة الدودية القيحي ؟ ها ؟ وحالات الذبحة  
الدفتيرية عند الفتية الريفيين ؟ وماذا لو اضطرت لشق الرغامى ؟ فانا  
بدون هذه البلية ، لن أكون سعيدا جدا . . . وماذا عن التوليد ؟! الأنسى  
التوليد ؟! ماذا سأفعل مع الولادات العسيرة ؟! يا لي من رجل ساذج !  
كلن علي ان ارفض المجيء الى هنا ، كان علي ، وكان بإمكانهم ان يجدوا  
لأنفسهم ليوبولدماس . » .

في جو من العتمة والحزن رحت أذرع غرفة المكتب جيئة وذهابا .  
وعندما كنت أقف بجانب لمصباح كنت أرى كيف يتأرجح خيالي في  
عتمة الحقول اللامتناهية الى جانب ضوء المصباح المنبعث من النافذة .

وخطرت في ذهني فكرة غبية مفاجئة « انني اشبه ديمتري  
الكاذب »(\*) ثم جلست من جديد وراء الطاولة .

مرت ساعتان وأنا أعذب نفسي ، حتى وصلت إلى مرحلة لم أعد  
أطبق فيها الخوف الذي أحطت نفسي به . عندها بدأت أهديء من  
روعي وأرسم بعض الخطط المستقبلية .

لا بأس . . . يقولون إن حضور المراجعين الى المشفى نادر في هذه  
الفترة . إذ ينشغل الفلاحون في القرى بحطج الكتان ، كما أن الطرق  
غير سالكة . . . « إذا يمكنهم أن يحضروا حالة فتاق - نطق صوت جلف  
في رأسي - لأن المصاب بالرشح ( مرض سهل ) لن يغامر بالحضور عبر

(\*) ديمتري الكاذب : هو شخصية كاذبة ادعت أنها ديمتري ابن القيصر ، علما أن هذا  
الطفل قتل وهو طفل .

الطرق المغلقة اما المصاب بالفتاق فإنهم سيحملونه إليك حتماً . اطمئن  
أبها الدكتور العزيز .

ارتعدت لهذه الفكرة ! لأنها لم تكن غبية البتة ! اليس كذلك ؟

فقلت للصوت : « اسكت ! ليس شرطاً أن يكون الفتاق . ما هذا  
الهلل ؟ أقبلت على فعل شيء فلا تقل قد لا أفلح » .

فأجاب الصوت ساخراً : « تدمي أنك ستفلح ، فأقبل  
التحدي إذاً » .

حسناً ... لن افارق الدليل الطبي أبداً ... إذا كان لا بد من  
وصف الدواء فلنني سأفكر ريثما أغسل يدي وسيكون الدليل مفتوحاً  
بجانب سجل المرضى مباشرة . سأصف للمرضى وصفات سهلة لكنها  
نافعة ، مثلاً نترات الساليسيليزم(\*) نصف غرام ، حبة واحدة ،  
ثلاث مرات في اليوم .

علق محدثي الداخلي بسخرية واضحة « يمكنك أن تصف  
الصودا ! » .

— وما علاقة الصودا هنا ؟ بل سأصف الإيبكاكوانكا(\*)  
المحلولة ... ب ١٨٠ او ٢٠٠ ملم ماء . أسمح بذلك ؟

وعلى الرغم من أن أحداً لم يطلب مني في تلك اللحظة في وحدتي  
عند المصباح الإيبكاكوانكا فقد قمت هلعاً أتصفح دليل الوصفات الطبية  
لأؤكد من هذا المستحضر ، وأثناء ذلك قرأت على نحو آلي عن وجود  
مستحضر « الإنيسييين » في عالم الطب .

(\*) الساليسيليزم : الصوديوم الصفصائي : دواء مسكن يشبه الأسبرين .

(\*) إيبكاكوانكا : ( كلمة برتغالية ) تعني عرق الذهب ، تستعمل جذورها في الطب  
كدواء مقشع مساعد على الإقياء .

لا بد انه « سلفات اثير مع حامض ثنائي الغول الكيني » ...  
يبدو انه ليس له طعم الكينا ! لكن ما فائدته ؟ ولاي الامراض يوصف ؟  
هل هو مسحوق ؟ ليأخذه الشيطان !

« فلندع الإنسيبين جانباً ... لكن ماذا ستفعل مع حالة الفتاق ؟ »  
هكذا الح علي الخوف متمتلاً بصوت يأتيني من الأعماق .

فدافعت عن نفسي دفاع الغاضب : « سأضعه في البانيو ، نعم في  
البانيو وسأحاول إعادة الأمور إلى نصابها » .

فأجاب الخوف بصوت شيطاني : « إنه فتق محتصر ، ياملائكة ،  
فمن أي بانيو تتحدث ! محتصر ، لابد من الجراحة ... » .

عندها استسلمت بل كدت أبكي ، وصليت متوجهاً نحو العتمة  
خلف النافذة راجياً أن يحدث أي شيء عدا الفتاق المحتصر .

قال لي الإرهاق :

« نم قليلاً أيها الطبيب التعيس . ستشبع يوماً الآن وغداً سبصبح  
كل شيء واضحاً . هدىء من روعك أيها الشاب الخائر الأعصاب . انظر  
من حولك فاللظمة خلف النوافذ هادئة ، والحقول المتجمدة نائمة وليس  
ثمة فتاق . وغداً ستغدو الأمور واضحة . ستتكيف ... نم الآن ...  
دع الأطلس فلن تفهم منه شيئاً على كل حال ... فتلق دائري ... » .

لم أفهم كيف طار ذلك الصوت . أذكر أن المزللاج قد قرع بعنف  
وأن أكسينيا قد قالت شيئاً ما ، وأن عربة ما كانت تصرّ خلف النوافذ .

كان حاسر الرأس ، يرتدي فروة مفكوكة الأزوار ، وله لحية شعشاء ،  
وعينان مجنونتان .

رسم إشارة الصليب وركع على ركبتيه ضارباً جبينه بالأرض .

قلت في نفسي بحزن : « لقد ضعت » .

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟ ماذا ؟ قلت وأنا أرفعه من كمه الرمادي .

لوى وجهه ثم نزع يقول متلعثما مبعثراً كلماته :

— سيدي الطبيب ... سيدي ... إنها وحيدتي وحيدتي ..  
قال ذلك بصوت شابٍ هادئٍ اهتز له غطاء المصباح . ثم ثنى يديه بحزن  
وراح يضرب رأسه بالأرض كأنه يريد تهشيمه وهو يصيح :

— آخ يا إلهي آخ ... ! لكن لماذا ؟ لماذا أعاقب .. ؟ ما هو ذنبي .. ؟

فصرخت به وأنا أشعر بالبرد يوسع وجهي :

— ماذا ؟ ما الذي حدث ؟!

فقفز على قدميه ومطّ جسده نحوي وأخذ يقول :

— سيدي الطبيب ... كل ما تريد ... أعطيك مالا ... خذ  
ماشتت من المال ، خذ ما تريد .

سأحضر لك ما ترغب من المؤونة ... أنقذ حياتها فقط ، لا تدعها  
تموت ! أبقيها وألّو شواء ، لا بأس ، ليكن .

ثم صرخ متوجها نحو السقف : لدينا ما يكفي لإطعامها ...

بدا وجهه أكسينيا الشاحب وكأنه معلق في الفراغ الأسود . وغمر  
الحزن فليبي فصرخت به متألماً :

— ماذا ؟ ماذا ... ؟ قل !

هدأ الرجل فبدت عيناه كأنهما بلا قاع . ثم أخذ يهمس لي كأنه  
يودعني سراً :

- سقطت في محلجة الكتان .

- في المحلجة ...؟ وسالت ثانية - في المحلجة ؟ ماذا تعني كلمة محلجة ؟

فهمست لي أكسينيا شارحة :

- كتان ، يحلجون الكتان ياسيدي الدكتور ... المحلجة تحلج الكتان ...

ففكرت وقد أخذني الهلع « يالها من بداية . لكن لماذا أتيت ؟ » .

- من الذي سقط ؟

- إنها ابنتي . ثم مالبت أن رفع صوته : ساعدوني ! ثم ركع من حديد على الأرض فغطى شعره المقصوص على شكل أقواس عينيه ...

\* \* \*

كان المصباح ذو الغطاء المعدني على شكل قرنين يضيء بهلوه . ورايتها على طاولة العمليات فوق الشرف الأبيض الذي يفوح نضارة ؛ فانقضت فكرة الفتاق من ذاكرتي .

تدلى شعرها الذهبي من على الطاولة شعثاً مفتلاً في آخره . وبدت حديلتها كثة يلامس طرفها الأرض . وتمزقت تنورتها المنقوشة وتلطخت بالدم فبدت مبرقة ببقع باهتة وأخرى صفراء وغيرها قرمزية . وبدأ لي نسوء المصباح أصغر حياً ، وبدأ وجهها أبيض باهتاً وأنفها مدبباً .

نوى على وجهها الأبيض الذي يشبه الثلج الساكن ، جمال حقيقي نادر ، لا يرى المرء مثله دائماً ، بل قلما يرى مثله .



ساد الصمت المطلق لعشر توان في غرفة العمليات ، لكن كان تمة  
بحيب خافت لشخص ما خلف الباب الموحد ، وتمة ضرب للرأس على  
الأرض .

وفكرت : « لقد خولط في عقله وهذا يعني ان المرضات سوف  
يسقونه شيئاً ما . . . ما سر هذا الجمال ؟ صحيح ان ملامح الاب  
جميلة ايضاً ، لكن الام على ما يبدو كانت حسناء . . . إنه أرمل . . . »

همست على نحو آلي :

— الأرمل هو ؟

فاجبت بيلاجيا إيفانوفنا بهدوء :

— نعم أرمل .

في تلك اللحظة مزق ديميان لوكيتش بحركة نزقة تنورة الفتاة من  
بدايتها وحتى نهايتها ، فعرّاها تماماً .

نظرت فرايت ما فاق بصوري ، إذ لم يكن ثمة رجل يسري ؛ ولم  
ينن غير مزق تنزف ، وعضلات مهروسة دامية بين ركبتها المحطمة  
ووركها . وقد نتأت العظمت المهنسة في كل الجهات . أما الرجل اليمنى  
فقد كانت مكسورة في غير ما موضع وقد برزت العظام عبر الجلد عند  
الساق . ومن جراء ذلك كانت فلسها ميتة تمددت فوق الطاولة كأنها  
جزء مستقل لا علاقة له بباقي الجسد .

— اواه . دمدم مساعدي ولم يصف أي كلمة أخرى .

وقتها صحت من الصدمة الاولى ، فاخذت يد الفتاة لارى نبضها  
الذي لم يكن محسوساً في يدها الباردة ؛ ولم اشعر بالنبضة الخافتة إلا

بعد مرور بضع نوان . وضعت النبضة ... فكان ثمة فاصل زمني  
استطعت خلاله أن أنظر إلى أنفها الأزرق وشفنيها البيضاوين أوشت أن  
أقول : إنها النهاية ... لكنني لم أفعل لحسن الحظ ... إذ شعرت  
بنبضة خيطية أخرى تحت إصبعي .

« فكرت : هكذا يموت الإنسان الممزق ، ولا يمكن مساعدته  
بنسبي » ...

وفجأة قلت بصوت خشن حتى إنني نفسي لم أعرفه :

— الكافور \* !

مندها انحنت أنا نيكولايفنا نحوي وهمست في أذني :

— لماذا الكافور يا دكتور ؟ لا تعذب نفسك ! لماذا الحقن أيضاً ؟  
ستموت قريباً ولن تستطيع إنقاذها .

حدقت فيها بلوّم وعبوس وقلت :

— أرجو إعطائي الكافور ...

فهرعت أنا نيكولايفنا إلى طاولة الأدوية مهتاجة مستاءة واحضرت  
الحبابة .

ولم يكن مساعدي موافقاً على حقن الكافور على ما يبدو ؛ لكنه على  
الرغم من ذلك تناول المحقنة بسرعة وإتقان وحقن الفتاة تحت جلد كتفها  
الأيسر بالزيت الأصفر .

---

(\*) استخدم الكافور قديماً لعلاج عدة حالات مرضية أهمها تخفيف الألم .

« قلت لها في نفسي : موتي هينا اسرعي ، موتي وإلا فإنني لا أعرف  
ماذا أفعل بك » .

قال مساعدي وكأنه يقرأ ما في ذهني :

— ستموت الآن .

ثم نظر بطرف عينه إلى الشرف ؛ وكان — على ما يبدو — يقول  
بينه وبين نفسه : من المؤسف ان يتلوث الشرف بالدم . لكن ، بعد  
نضع ثوان كان لا بد من تغطيتها به .

كانت ممددة جثة هامدة لكنها لم تمت بعد — وفجأة أصبح كل  
شيء واضحاً في ذهني كما لو أنني في مشرحة الجامعة ذات السقف  
الزجاجي .

قلت :

— أعطوها الكافور أيضاً .

فحقنها مساعدي مرة ثانية بطاعة تامة .

« قلت في نفسي : أويمكن الا تموت ؟ هل سأكون مضطراً أن . . . »

أصبحت الأمور واضحة في ذهني تماماً إذ فهمت دون مساعدة أو  
استشارة أو عودة إلى المراجع أن عليّ أن أقوم لأول مرة في حياتي ببيت  
عضو في جسد شخص يحتضر — كانت ثقتي كبيرة بإدراكي هذا — آه قد  
نموت تحت المبضع فقد نزف دمها حتى نضب كل ما عندها ، وهي تقطع  
الفراسخ العنصرة بساقر مهشمة . وليس واضحاً إن كانت تشعر بشيء  
الآن أو تسمع شيئاً . إنها صامتة تماماً . آه لماذا لا تموت ؟ ماذا سيقول  
لي والدها المجنون ؟

قلت لمساعدتي بصوت غريب :

— جهزوا لعملية البتر !

نظرت القابلة نحوي نظرة مفترسة ، أما مساعدتي فقد لمعت في عينيه إشراقة معطف معي ؛ لم انهمك في تحضير أدوات الجراحة . وأشعل ( بابور ) الكاز .

ربع ساعة مضت . رفعت جفنها البارد ونظرت برعب شديد في عينها المنطقشة . لم أستطع فهم أي شيء . كيف يمكن لنصف جثة أن نحيا . وتدفقت على جبيني قطرات العرق المالح المندفعة من تحت القبة البيضاء . وأخذت بيلاجيا إيفانوفنا تمسح عرقى بقطعة الشاش البيضاء .

تسلل المخدر إلى بقايا الدم في عروق الفتاة . أكلن ضروريا حقنها بالكافيين ؟ انهمكت أنا نيكولايفينا بتدليك الانتفاخات التي نتجت عن الحقن في أرداف الفتاة . أما الفتاة فما زالت حية .

أمسكت الموضع محاولاً تقليد شخص ما ( لم أر في حياتي الجامعية عملية بتر إلا مرة واحدة ) ورجوت القدر ألا يغيبها عن الوجود في نصف الساعة القادمة ، « والتمت فيما بعد في العنبر بعد إنهاء العملية » .

كان ذهني المتيقظ يعمل نيابة عني ، تحفزته تلك الحالة غير العادية . حوزت الفخذ دائرياً بإتقان كأنني لخاتم خبير فانتفخ الجلد دون أن ينزف قطرة واحدة . « ماذا سأفعل عندما يبدأ الدم بالسيلان من الأوعية ؟ » فخرت بذلك ونظرت كدئب نحو كومة الملاقط . فطعت قطعة كبيرة من لحم الفتاة وشريانا يسبه النبوة أبيض ، ولم تنزف منه نقطة دم واحدة . ضغطت على الشريان بأحد الملاقط وتلعت العمل وأضعا الملاقط في الأماكن التي يحتمل وجود الأوعية الدموية فيها شريانا شريانا . تحولت عرفة العمليات إلى مشفى كبير ، وتدلّت الملاقط كالعناقيد تشدها إلى

الأعلى مع اللحم ربطة الشاش . ثم بدأت أقطع عظم الفخذ المدور بمنشار  
لامع ناهم الأسنان . « لماذا تموت ... ؟ إنه لمدهش كيف يتعلق الإنسان  
بأهداب الحياة ! » .

بعد أن انفصل العظم بعضه عن بعض بقي في يد ديميان لو كيتش  
ما كان من قبل سافاً للفتاة . قطع لحم ممزق ، عظام ! وضعنا هذه  
الاشياء جانباً ، وبقيت الفتاة ممددة على الطاولة وقد تقلص ثلثها بسبب  
العضو المبتور الموضوع جانباً . كنت اقول لها في قلبي : « انتظري قليلاً !  
قليلاً فقط ، لا تموتي ! اصبري حتى ننقلك إلى العنبر ! المنحني فرصة  
لأخروج بسلام من هذا الموقف الأكثر رهبة في حياتي » .

فيما بعد قطبت الأوعية الدموية ، مستخدماً إبرة معقوفة ، ثم  
أخذت أخطط الجلد بقطب قليلة من الحرير لكنني توقفت ، وكان إلهاماً  
هبط عليّ ، وأدركت ... عليّ أن أترك فتحة للنزف ، فوضعت هناك  
قطعة شاش ... بلل العرق عيني ، فشعرت أنني في الحمام ...

تنفست بعمق . ونظرت متألاً إلى الرجل المبتورة ، ثم إلى وجه  
الفتاة الممتقع . وسالت :

— هل هي حية ؟

فاجابني مساعدتي وأنا نيكولايفنا بصوت كصدى متلاش :

— حية

— ستعيش دفيقة أخرى . همس المساعد في أذني وهو يحرك  
شفتيه دون أن يصدر صوتاً . ثم تعلثم وقال ناصحاً باحترام :

— الأفضل ألا نلمس الرجل الأخرى ، وإن نكتفي بلفها بالشاش  
وإلا فإنها لن تصل إلى العنبر ... هه ؟ سيكون من الأفضل ألا تموت في  
غرفة العمليات .

— أعطوني الجبس ! امرت بصوت اجس تدفعني قوة مجهولة ...

— علت بقع الجبس الأرض ، بينما بللنا العرق جميعاً . كان نصف  
الجثة ممدداً بلا رحاك ، وكنت الساق اليمنى وقد لفت بالجبس ما خلا  
فتحة صغيرة أهيتها كالنافذة مكان الكسر .

قال مساعدي مدهوشا :

— ما زالت حية .

حملناها بعد ذلك لننقلها — كان واضحاً تحت الشرشف حجم الجزء  
الكبير الذي فقدته — تاركين ثلث جسدها في غرفة العمليات .

كانت الظلال تتحرك في الممر ، وهرعت الممرضات ... ورايست  
كيف كانت هيئة لرجل اشعث تسير جانب الحائط ونعول عويلاً جافاً .  
لكنهم أبعدوها . فخيم صمت .

كنت أغسل في غرفة العمليات يدي اللدماين حتى الأكواع ، عندما  
سالتني أنا نيكولايفنا :

— يبدو أنك أجريت عمليات بتر كثيرة يا دكتور ؟ لقد عملت عملاً  
ممتازاً لا يقل عن عمل ليو بولد ...

كانت دائماً تلفظ كلمة ليوبولد كأنها كلمة « دواين(\*) » .

نظرت بتجهم في وجوه الحاضرين ، كانت عيونهم — حتى ديميان  
أو كيتش ويلاجيا أيفانوفنا — تسي بالاحترام والدهشة .

— احم ... اتعرفون ! أجريت عملية كهذه مرتين قبل الآن ...

---

(\*) دواين : بالفرنسية Doyen ومعني الزعيم ، المهم .

لماذا كذبت ؟ لا أفهم الآن لماذا ؟

خيم الهدوء في المشفى تماماً .

أمرت مساعدي بنصف صوت .

— عندما تموت أرسلوا من يحبرني .

فاجاب مساعدي باحترام :

— بأمرك يا سيدي ، ولم يقل « حسناً » .

بعد دقائق قليلة كنت في الشقة المخصصة للطبيب ، اجلس في غرفة  
مكتبي بالقرب من المصباح الأخضر . كان البيت صامتاً .

الانعكس وجهي الشاحب على الزجاج الأسود .

« لا لا أشبه ديمتري الكلاب ... لكنني على ما يبدو شخت قليلاً »  
ثمّة تجعيد بين الحاجبين ... سيقرعون الآن الباب ويقولون : « ماتت »  
« سأذهب وألقي عليها نظرة أخيرة ... الآن سيقرع الباب » .

وقرّع الباب . كان هذا بعد شهرين ونصف . كلن واضحاً عبر  
النافذة ان أيام الشتاء الأولى قد حلت .

دخل هو ، لم أنعم النظر فيه الا بوقتها . كانت ملامح وجهه طبيعية  
فعلاً ، تنم على خمس وأربعين سنة . وكانت العينان مشرقتين .

بعدها سمعت خفيفاً ... فدخلت فتاة برجل واحدة تتكىء على  
عكازين وترتدي تنورة فضفاضة خيطة أطرافها « بكشاكش » حمراء .  
كانت فائقة الجمال .

— في موسكو . . . في موسكو — وأخذت أدون العنوان — هناك  
يصنعون الأعضاء الاصطناعية وسيصنعون لك ساقاً .

أمرها واللدها فجأة :

— قبلي يده .

ويبدون ذلك كان ارتباكى شديداً ، فقد قبلتها من أنفها بدلا من  
وجهها .

عند ذلك أخرجت — وهي تتكىء على عكازيها — لفافة فماش  
وفردتها ، فظهرت منشفة ناصعة البياض طرز عليها على نحو بدائي ديك  
أحمر . نعم هذا ما كانت تخبئ تحت مخدتها عندما كنت أفحصها . . .  
نعم أذكر كيف كانت تضع الخيوط على الطاولة .

— لا آخذها . قلت بلهجة صارمة بل هزرت رأسي أيضا . لكن  
وجهها وعينيها تغيرا إلى حد جعلني أقبل الهدية .

ظلت المنشفة معلقة لعدة سنوات في غرفة نومي في قرية مورينا  
ومن ثم ارتحلت معي إلى أوتحت . وفي النهاية بليت واهترات . . . ثم  
اختفت كما تختفي الذكريات وتمتحي .

\* \* \*



## العين المفقودة

وهكذا انقضى عام ؛ عام كامل على وصولي الى هذا المنزل . كانت ستائر المطر في ذلك اليوم معلقة بين السماء والأرض كما هو الآن ؛ وكانت آخر الوريقات الصفرة على أشجار البتولا (\*) قد تراخت ... شعرت ان شيئاً لم يتغير من حولي ، لكنني أنا نفسي تغيرت تغيراً شديداً . ساحبي أمسية الذكريات في وحدثي المطلقة ... مشيت فوق الأرضية الخشبية التي تصرّ تحت قدمي متجهاً نحو غرفة النوم . نظرت في المرآة ... نعم ، الفرق كبير جداً ؛ فمئذ عام مضى انعكس في المرآة المستلة من الحقيبة وجه حليق ، وزينت تسريحة الشعر الجانبية وقتها الرأس الذي بلغ ثلاثة وعشرين عاماً ، أما الآن فقد اختفت التسريحة تماماً ، وغلب شعر الرأس مرسلًا الى الخلف دون أي ممانعة ؛ إذ لا يمكن للتسريحة أن تغوي أحداً في مكان يبعد عن طريق سكة الحديد ثلاثين فرسخاً ، وهذا ما ينطبق على حلاقة الدقن أيضاً .

فوق الشفة العليا توضع بحزم شعيرات تشبه فرشاة أسنان مصفرة خشنة ، وأصبح الخلدان منل المبشرة . ما أظف أن يحك المرء بده بخده عندما يحتاج الى ذلك في أثناء العمل ... هذا الأمر يحدث كثيراً ، لا سيما إذا كان المرء يحلق ذقنه ثلاث مرات في الأسبوع ، فما بالك إن كان يحلقها مرة واحدة فقط ؟ !

---

(\*) البتولا : او شجر القصبان : شجرة تنبت في البلاد الباردة ولها اصناف كثيرة . تتساقط اوراقها منذ بداية الخريف حتى بداية الربيع .

قرات مرة ... أو كأنني قرات ... في مكان ما ... أين ؟  
نسيت ... قرات عن رجل إنكليزي وصل الى جزيرة غير مأهولة .  
كان إنكليزيا ظريفاً ؛ عاش هناك منتظراً حتى وصل إلى مرحلة «الهوسة» ،  
وعندما اقتربت باخرة من الجزيرة ، رآته ، فأرسلت زورقاً يحمل منقذين  
لإنقاذه ، لكن الراهب الإنكليزي استقبلهم عندما رأهم بإطلاق النار من  
مسدسه ، ظاناً أنهم جنس مائي خلبي مخادع يشبه السراب . لكنه  
كان حليفاً فقد كان يطلق لحيته يومياً في الجزيرة غير المأهولة . أذكر  
أن هذا الولد البار لإنكلترا قد أثار في احتراماً هائلاً نحوه . لذا فإنني ،  
عندما عزمت على السفر الى هنا ، وضعت في حقبتي آلة حلاقة من  
نوع « جيليت » ، ومعها « دزينة » شفرات ، إضافة الى موسى حلاقة  
وفرشاة . وقررت حينها قراراً حازماً أن أطلق لحيتي مرة كل يومين ،  
لأن الحياة هنا ليست أسوأ من الجزيرة غير المأهولة في شيء . لكن ،  
حصل مرة في شهر نيسان النير ، أنني بسطت هذه الروائع الإنكليزية  
كلها تحت أشعة الشمس الذهبية ، وأخذت أحلق ، ولم أكد أنتهي  
من حلاقة خدي الأيمن ، حتى اقتحم إيفوريتش الملك بجزمته الطويلة  
الممزقة ، يدب كحصان شمس ليخبرني أن ولادة تحدث بين الأشجار  
فوق النهر في الغابة المحمية ... أذكر أنني مسحت الخد الأيسر بالمنشفة  
وهرعت مسرعاً مع إيفوريتش .

ركضنا ثلاثتنا نحو النهر الفخاض العكر الجاري بين أقصان شجيرات  
الاصفصاف العارية ، أنا بعيني «الجاحظتين المتوحشتين» ، والمقابلة ومعها  
ملاقط السحب ، والفاقة شاش وزجاجة يود ، وخلفنا إيفوريتش الذي  
كلن ينحني إلى الأرض كلما مسى خمس خطوات لينزع فردة جزمته  
الستوية لاهناً نعلها الذي انقلع . كلن الهواء يأتي للقائنا مواءجها ، عذباً  
ومتوحشاً ، إنه هواء روسيا في الربيع . سقطت بكلة القابلة ببلاجيا  
إيفانوفنا عن رأسها فانحلت عقدة شعرها ، فانسدل على كتفيها .

قلت لإيفوريتش ونحن ماشيان :

— أنت تبذر نقودك كلها على الخمر . هذه حقارة . حارس مشفى  
ويمشي كالصعلوك المتشرد .

فرد إيفانويتش بصجر بوللوم :

— أية نقود هذه لا عشرون روبلا في النهر لقاء تعب مضن وعذاب  
سديد... آخ يا ملعونة ! — ضرب رجله في الأرض مثل حصان مفتاح —  
النقود لا علاقة لها بالجزمة . أما شرب الخمر فمن أين المال يا حشرة... !

قلت بصوت خافت وقد انقطع نفسي :

— الشراب هو أهم شيء عندك، ولذلك تمشي بثيابك الرثة كالصعلوك .

وعندما اقتربنا من الجسر المتعفن تناهى إلى سمعنا عويل خفيف  
حزين طار من فوق فيضان النهر الجامح ثم انطلقا .

ركضنا ، وعندما دنونا رأينا امرأة شعناء تتلوى من الألم ، سقط  
ساقها عن رأسها فتهدل شعرها على جبينها المتعرق . كانت تحرك عينيها  
هنا وهناك بعذاب شديد ، وتمزق معطفها بأظفارها .

لعلخ الدم القاني أول الأعشاب الربيع الخضراء التي برزت شاحبة  
متفرقة على الأرض اللزجة المشبعة بالماء .

قالت بيلاجيا إيفا فوفنا بسرعة :

— لم تصل ، لم تستطع الوصول ...

ثم شرعت تفك لفاقة الشاش، وهي حاسرة الرأس تشبه الساحرات  
المشعوذات . . . . . وهنا ، ونحن نسمع هدير الماء المرح الذي يندفع عبر  
دعامات الجسر الخشبية ، استقبلنا أنا وبيلاجيا إيفانوفنا الوليد الذكر ،  
استقبلنا روحاً حية ، وانقلنا الأم . وقامت ، فيما بعد ، ممرضتان

مذكرات طبيب مـ٩

نقل الوالدة على الجمالة إلى المستشفى ، وقد ساعدهما في ذلك إيفوريتش  
الذي غدا حافي الرجل اليسرى بعد أن تحررت في نهاية الأمر من النعل  
المقيت البالي .

سألت الأم ، بعد أن تملدت في فراشها ساكنة شاحبة مغطاة  
بالملاءات ، ووضع الوليد في مهده إلى جانبها ، وعادت الأمور إلى طبيعتها :

— ساهداً أيتها الأم ؟ ألم تجدي مكاناً لولادتك أفضل من الجسر ؟  
لماذا لم تستخدمي الخيول في المجيء إلينا ؟

أجابت :

— لم يعطني حمي خيلاً . فال لي : إنها خمسة فراسخ لا غير  
وستصلين ، إنك امرأة قوية ، ومنتعة بالعافية ، ولا توجد ضرورة  
لإتعاب الخيل .

فقلت لها غاضباً :

— حموك غبي ، بل خنزير .

وملقت ببلاجيا إيفانوفنا :

— آه ، إلى أين وصل هذا الشعب الجاهل . ثم ابتسمت انتسامة  
ساخرة .

«التقطت» نظرتها التي كانت موجهة إلى خدي الأيسر ، فخرجت  
فوراً ، وذهبت إلى غرفة التواليد ، وهناك نظرت في المرأة ، فعكست  
المرأة ما عكسه عادة : خلقة عوجاء من النوع المنتكس بوضوح ، وزرقة  
تحت العين اليمنى ... وهنا لم تذنب المرأة في شيء ، فقد كان خدي  
الأيمن يتراقص لامعاً ، أما الأيسر فقد استطلت عليه أشواك كثة شقر

مائلة إلى الحمرة ، ولعبت الدقن دور المنصف بين الخدين ، فخطر في بالي كتاب مجلد بجلدة صفراء يحمل عنوان « ساخالين »(\*) فيه صور لرجال مختلفين . ونخيلت : « جريمة قتل ، عنف ، بلطة مدماء ، عثر سنوآت ١٠٠٠ . بالحياي الرائعة في هذه الجزيرة المهجورة ، لابد من الذهاب لإتمام الحلاقة » .

سمعت وانا أنففس نسيم نيسان الآتي من الأراضي السود ، نعيب الغربان المنبعث من رؤوس الفصان أشجار البتولا . انغمضت عيني قليلا بسبب أشعة الشمس وسرت عبر الفناء كي أتم حلاقة الحيتي ، كان هذا في الثالثة عصرا ، ولم استطع إتمام الحلاقة إلا في التاسعة مساء .

لا أذكر بتلنا أن مثل هذه الأحداث غير المتوقعة قد حدثت في مورنيسك منفردة ، فالمصائب هنا لا تأتي إلا مجتمعة . . . لذا فلم أكد أبصر فوس الباب متجها نحو بيبي حتى ظهر لي في الباب الرئيسي وجه فرس تجر عربية ملطخة بالأوساخ ، تهتز بقوة وتقودها المرأة .

صرخت المرأة بصوت دقيق :

— ساعدوني .

وتناهى الى سمعي انين الولد الملفوف بكومة من الخرق البالية . كان قد أصيب بكسر في رجله بالطبع . . . لذا فقد أمضيت مع مساعدي ساعتين كاملتين ونحن نجبر الرجل المكسورة بالجبس ، وهو يعول عويلا متواصلا لم ينقطع خلال ساعتين . . . وبعد ذلك ، كان لابد من تناول وجبة الغداء ، من تم تكاسلت عن إتمام الحلاقة ، ورغبت بقراءة شيء ما . ثم بدأ الظلام يمد جناحية ، وأرجىء أمر الحلاقة طويلا الى أن أتممتها متأخرا بغضب واكتئاب . . . وهكذا بقيت ذكرى الولادة الربيعية فوق

---

(\*) ساخالين : جزيرة نائية تقع بالقرب من اليابان بنفى إليها الخارجون عن القانون .

الجسر في ذاكري الى الابد مثلما بقيت الخطوط الصدئة على ماكينة  
الجيليت المنسية في ماء الصابون .

وعلى تلّ حال ... فالخلافة مرتين في الأسبوع لا مسوغ لها  
بتاتا ... فقد كانت العاصفة الثلجية تهبّ أحيانا ، فيغمرنا الثلج  
كلياً ، ويحاصرنا فتبقى يومين في مشفى موريفسك دون أن نستطيع  
إرسال الحملات ليحصر الجرائد التي تباع على بعد تسعة فراسخ . وكنت  
القضي اللبالي الطوال أفيس ، وأفيس غرفة المكتب متشوقا بشدة لقراءة  
الجريدة شوقا يشبه شوق الأطفال لقراءة ( قياف ) كوبر (\*) . لكن ،  
مع ذلك فإن العادات الانكليزية لم تنته تماما في جزيرة موريفسك غير  
الماهولة ، لذا كنت اخرج أحيانا العوبتي الجميلة من غلافها الأسود ،  
وأحلق لحبتي دون حماس ، فأغمدو ناعماً نظيفاً كذاك الانكليزي الأبّي ،

لكن ، للأسف لم يكن ثمة من يمكن ان يستمتع بالنظر إليّ .

اسمحوا لي ... فقد تذكرت حادثة أخرى :

ما إن أخرجت مرة آلة الخلاقة ، واحضرت أكسينيا كوز الماء المغلى  
المثلج حتى قرع الباب بقوة ، وأرسل من يطلبني ... انطلقت أنا وبيلاجيا  
إيفانوفنا نحو مكان ذلك الخيف ، ملتحقين بقراء الخراف . ومضينا في  
طريقنا . لقد كنا مع الخيول والحوذلي نشبه نبحاً أسود يعبر محيطاً  
مسعوراً من الثلج الأبيض .

كانت العاصفة تصفر من حولنا مثل ساحره مسعوذة ، وتعوي ،  
وتنفث ، وتقهقه . اختفت الأنبياء من حولنا تماماً . وشعرت ببرد

---

(\*) جيمس فينيمور كوبر : Jams Fenimore Cooper ، اديب امريكي  
( ١٧٨٩ - ١٨٥١ ) اشتهر بسلسلة رواياته التي تتحدث عن عالم البحار ، ومنها  
روايه ( القياف ) .

— كنت قد عرفته سابقاً — في بطنى ، في الضفيرة النمسية بالتحديد ، وراودتني فكرة أننا سنخرج عن الطريق في هذه العتمة الشيطانية المراوغة ، وسنضيع جميعاً في هذه الليلة : أنا وبيلاجيا إيفانوفنا والخيول والحوذى . وخطرت في ذهني وقتها فكرة غبية ، كما أذكر ، وهي أنني سأقوم — عندما يغمرنا الثلج الى منتصفنا ونبدأ بالتجمد — بحفن نفسي والمرضة والحوذى باللورفين ... لماذا ؟ كي لا نتعذب ...

أجابني صوت جاف وقوي . لا بأس أيها الطبيب ، ستموت من البرد ، ستموت مئة فائقة ، وديون مورفين ، ثم صفرت المشعوذة غو ، أو ، اس س... وأخذت تهزنا في زلاجاتنا وتهزنا ... نعم سبعلقون هناك في جريدة العاصمة في الصفحة الأخيرة من الجريدة من كذا وكذا ... وانهم ماتوا أثناء تأدية الواجب ؛ الطبيب فلان — على حد سواء — مع بيلاجيا إيفانوفنا والحوذى وزوج الخيول ، رحمهم الله دفنوا في بحر الثلج . اللعنة ... ماذا يخطر في ذهنك عندما يقولك ما يسمى بالواجب المهني ، ويقولك ...

لكننا لم نموت ، ولم نضل الطريق ، بل وصلنا الى قرية غريشيخو حيث همت بثأتي تحويل للرجل في حياتي أثناء التوليد . كانت الماخض زوجة معلم القرية .

وبينما كنا نعارك أنا وبيلاجيا إيفانوفنا تحت ضوء المصباح كي نحول الاتجاه الجنين وكانت أيدينا غارقة في الدم حتى الأكواع ، والعرق بلل أجسادنا حتى العيون ، كان أنين الزوج مسموعاً وهو يذرع الأرض جينة وذهاباً خلف الباب الخشبي في الجزء الخارجي من البيت .

وبين تشيخ الماخض ، وأنين الأب الذي لا يهدأ ، كسرت — أقول لكم والسراً بيننا — يد الجنين .

تلقينا الولد ميتاً . آه سال العرق في ظهري . وخطر في ذهني فجأة  
ان شخصاً مخيفاً وضخماً وأسود سيظهر ، ويقتحم البيت ، ويقول  
بصوت من حجر :

— نعم ! يجب ان نسحب منه شهادة الدبلوم .

نظرت بأسى ، وقد همدت تعباً ، نحو الجسد الأصفر الميت ، ثم  
نحو الأم التي كانت ممتعة ممددة بلا حراك ، غارقة في غيبوبة بفعل  
الكوروفورم .

كانت العاصفة وراء النافذة على أشدها . وفتحنا الكوة لدقيقة  
كي نتخلص من رائحة الكوروفورم الخائقة ، فتحول ما دخل من هواء  
العاصفة الى سحابة من البخار . فيما بعد اغلقت الكوة ، واخذت  
أحرق في يد الأم المتدللية العاجزة بين يدي القابلة .

آه ، لا أستطيع التعبير عن اليأس الذي تملكني وأنا اعود الى البيت  
وحيداً بعد ان تركت بيلاجيا إيفانوفنا عند الأم كي تعتني بها .

كنت اهتز في المزوجة وسط العاصفة التي اخذت تهدأ ، ووسط  
الغابة التي ترنو إلى معاناة قانطة حزينة . شعرت بنفسي مهزوماً ،  
يسحقني القدر القاسي ؛ القدر الذي رماني في هذه الغابة ، وارغمني على  
الصراع وحيداً دون مؤازرة أو توجيه . ما أكثر الصعوبات الهائلة التي  
يمكن ان تعترضني هنا ، إذ يمكن ان يحضروا إليّ حالات مخادعة  
أو معقدة ، تكون في الأغلب حالات جراحية ، وعلي ان أقف أمامها  
مواجهة ، بوجهي غير الحليق ، وان اتقلب عليها . وإذا لم تنقلب ، فتعذب  
إذاً كما هي حالك الآن وانت تقطع الأراضي الوعرة تاركاً وراءك جثة طفل ،  
وأماً مريضة . غداً ، فور هدوء العاصفة ستأينني بها بيلاجيا إيفانوفنا  
إلى المستشفى وسيواجهني سؤال كبير — هل أستطيع مساعدتها ؟ وكيف  
يمكنني أن أفعل ذلك ؟



المساعدة : كيف يمكن فهم هذه الكلمة العظيمة ؟

في الحقيقة إنني أنصرف بطريقة اعتباطية ، ولا أعرف شيئاً . لكن حتى الآن كنت أوفق في عملي ، وانتجت يداي أشياء ناجحة ورائعة ، أما اليوم فلم يحالفني الحظ . آه إن قلبي منقبض من الوحدة ، من البرد ، من أن العالم خال من حولي .

من المحتمل أيضاً أنني ارتكبت جريمة — اليد المكسورة !

سأرحل إلى مكان ما — أركع أمام رجلٍ شخص ما وأقول :...  
هنا أنا وقد حدث كذا وكذا ... أنا طبيب وقد كسرت يد وليد .  
اسحبوا مني شهادة الدبلوم فأنا لا أستحقها ، زملائي الاعزاء ؛ أرسلوني إلى ساحالين . تباً لانهيال الأعصاب .

تكاكات على نفسي كي أختبئ في قعر المزلجة حتى لا يأكلني البرد المخيف ، وشعرت بنفسي مثل كلب متشرد غرّ يستحق الشفقة .

سرنا مدة طويلة قبل أن يضيء المصباح المعلق عند مدخل المشفى .  
باله من مصباح صغير فرح وعزيز دائماً ، كان يتلألأ قوياً تارة وباهتاً  
تارة أخرى فيختفي ثم يسترعي الانتباه ... وعندما اتبت نفسه بقوة  
أمام عيني ، وعندما كبر واقترب ، وعندما تحولت جدران المشفى من  
اللون الأسود إلى الأبيض قلت في نفسي وأنا أعبّر المدخل :

« هراء أن تفكر باليد المكسورة . فهذا أمر لا أهمية له البتة . أنت  
كسرت يد وليد ميت . يجب عدم التفكير باليد بل بالأمّ الحية » .

اتار فيّ المصباح ، ومنظر الطابق الثاني ، النشاط ، فقد أمسيت  
على كل حال داخل البيت ، وأنتمت طريقي صاعداً الدرج باتجاه غرفة  
المكتب ، شاعراً بدفء الموقد ، منتظراً بسوق النوم الذي سينسيني  
عذاباتي كلها .

« نعم هذا ما حصل ، لكن ، إضافة إلى ذلك ، فثمة وحدة\* مطلقة ومخيفة ، وحدة موحنة » .

كانت آلة الحلاقة على الطاولة ، وبجانباها كوز الماء المغلي الذي غدا بارداً ، رميت الآلة باحتقار في الصندوق . ما أشد حاجتي الى الحلاقة ... !

هذا عام كامل مرّ ، وبينما كان يمضي بطيئاً كان يبدو طويلاً جداً ، متعدد الأشكال ، معقداً ومخيفاً ، لكنه الآن كما أراه : طار كالزوبعة .  
وها أنذا أنظر في المرأة لأرى آثاره التي تركها في وجهي : العينان أصبحتا أكثر جدية وصرامة ، وقلقتاً ، والفم أكثر ثقة ورجولة ، وثمة تجميده فوق أنفبه الانف ستبقى مدى الحياة مثلها في ذلك مثل ذكرياتي .

أراهم(\*) في المرأة جميعاً . يركضون ركضاً محموماً . أهدروني فعندما كنت ارتجف خوفاً مما خطر في ذهني حول شهادة الدبّاءوم ، وحول المحاكمة التي سيجريها لي شخص خيالي ، خطر في ذهني أيضاً أن عدداً من القضاة المحلفين سيسألونني :

« أين فك العسكري ؟ أجب أيها المجرم المتخرج من الجامعة » .

يا لها من ذكرى ! القصة وما فيها أنه يوجد في هذا الكون مساعد طبيب هو ديميان لوكيتش، يقلع الأسنان بحدق يشبه حدق النجار الذي يقلع المسامير الصدئة من الألواح الخشبية العتيقة ، ومع ذلك فإن اللبابة واحترام النفس أملياً عليّ - منذ اللحظة الأولى القدومي إلى مشفى مورينسك - أن اتعلم قلع الأسنان دون الاعتماد على الآخرين ؛ فمن المحتمل أن يتغيب ديميان لوكيتش اللحظة ، أو يمرض . أما الممرضات فإنهن يستطعن كل شيء ما عدا شيئاً واحداً هو قلع الأسنان ، فهذا ليس من شأنهن .

(\*) المقصود : الطاقم الطبي الذي يعمل معه .

حصل مرة ... اتذكر جيداً وجهه المورد الخدين ، والمعلدب في الوقت ذاته ، وهو يجلس أمامي على الكرسي ؛ كان جندياً عائداً مثل الآخرين من خط الجبهة المنهار بعد الثورة . أذكر تلمعاً ذلك الضرس الضخم الراسخ ذا الجوف الكبير ، المزروع بثبات في الفك . وبجزع شديد بدأت العمل ، كان حاجبائي مقطبين تعبيراً عن الحكمة ، تنحنت ووضعت الكماشة على الضرس ، عندها خطرت في ذهني على نحو شديد الوضوح قصة تشيخوف التي يعرفها الجميع حول قلع سن الشماس ، فعرفت للمرة الأولى أن القصة ليست مضحكة أبداً . نشبت قرعة شديدة في فم الجندي فاستغاث على نحو مقتضب :

— آي ، ويلتاه !

أخذت يداي بعد ذلك تعملان في فمه دون ممانعة ثم خرجت الكماشة من الأفم قابضة على شيء أبيض مضمخ بالدم . عند ذلك خفق قلبي بشدة لأن هذا الشيء كان في حجمه أكثر ضخامة من ضرس ، بل أضخم من أي ضرس عسكري أصيل ، في البداية لم أفهم شيئاً بتاتاً لكني فيما بعد أوشكت أن أبدا بالنشيج ، إذ ظهر في الكماشة — على وجه الحقيقة — ضرس ذو جذور قوية ، لكن هذا الضرس قد حمل معه قطعة كبيرة حمراء مائلة إلى البياض من عظم الفك .

« لقد كسرت فكه . . » فكرت بذلك وقد أخذت رجلاي تخذلاني .  
أشكر القدر أنني وحيد هنا وليس حولي المساعد أو القابلات .

لقت خلسة ثمرة عملي الجسور في قطعة من الشاش وخبأتها في جيبتي .

كل الجندي يرتجف على كرسيه متمسكاً بيده الأولى برجل كرسي القابلة ، ومنشبتاً بيده الأخرى برجل كرسيه ؛ ينظر إلي محملاً بعينين مشدوهتين تماماً . فناولته بارتباك شديد كأساً من محلول صودات البوناسيوم وأمرته :

ـ ثمضمض !

كان هذا عملاً غيبياً ، فقد ملا فمه بالمحلول وعندما بصفه في الكوز  
خرج من فمه ممزوجاً بدم عسكري أحمر تحول في الطريق بين فمه  
والكوز إلى سائل كثيف ذي لون لا نظير له ؛ ومن ثم نقر الدم من فم  
الجندي بصورة جعلتني أتجمد من الفزع .

لو انني طعنت هذا المسكين بسكين في حلقه لكان من المستبعد أن  
ينزف دماً أكثر . أزحت كأس المحلول المطهر ، وأثبت الجندي بلغافات  
الشاش وأخذت أسد الحفرة المفتوحة في فكه . كانت قطع الشاش تتحول  
على الفور حمراء قانية ، وعندما كنت أخرجها من فمه كنت أرى بهلع  
شديد أن هذه الحفرة يمكن أن تتسع بسهولة لجبة خوخ من  
الحجم الكبير .

« لقد خربت فم الجندي » فكرت بذلك بقنوط وأنا أسحب قطع  
الشاش الطويلة من الوعاء الزجاجي . في النهاية خفت حدة النزيف ،  
فمسحت فم الجندي باليود .

ـ قلت لربوني متأثراً :

ـ عليك ألا تأكل شيئاً لمدة ثلاث ساعات .

فأجاب الجندي وهو يحملق مبهوراً في الكوز الذي ملأه من دمه :

ـ أشكركم شكراً جزيلاً .

فقلت بصوت رؤوف :

ـ اسمع يا صديقي . اسمع . . . تعال إليّ غداً أو بعد غد كي أراك  
. . . أظن . . . كما ترى أنه لا بد من فحصك . . . فألى جانب ضرسك  
المقلوع ، تمة ضرس بنير الشك . . . اتفقنا . . .

— اشكركم شكراً جزيلاً . اجاب الجندي عابساً ثم ابتعد يمسك  
خده بيده . اما انا فقد خففت إلى غرفة الاستقبال وجلست هناك لبعض  
الوقت أمسك رأسي بيدي وأهزه كأنني أتوقع من ألم الضرس مثل  
الجندي .

أخرجت — خمس مرات تقريباً — من جيبي اللقافة القاسية المدماة  
ثم عدت وأخفيتها . لقد عشت أسبوعاً كاملاً حياة ترقب وفلق فاعتل  
جسمي ونحل .

« سيصاب الجندي بالغنغرينا ، أو يتسمم في الدم... آه ، اللعنة ،  
لماذا حترت أنفي وكماشتي بهذا الأمر ... »

ارتسمت لوحات مجنونة في مخيلتي : ها هو ذا الجندي اخذ  
يرتعش . في البداية كان يمضي ويتحدث عن كيرينسكي وعن الجبهة ،  
فيما بعد أصبح أكثر صمتاً ، وغدا مشغولاً عن كيرينسكي . الجندي  
متعدد يتوسد حشبة قطنية ويهدي . درجة حرارته أربعون . القرية  
بأكملها جاءت لتعود الجندي . فيما بعد يتمدد الجندي بأنفه المدبب على  
الطاوله ، يتهلل للأيقونات .

تبدأ التقلبات في القرية :

— كيف جرى ذلك ؟

— « الدختور شلّو ضرسو » .

— هه فهمت هم ...

لاحقاً ، تزداد الأمور تضخيماً . وجراء ذلك يأتي الى شخص عنيف

— أنت قلمت ضرس الجندي ؟

— نعم ... أنا .

يشرحون جثة الجندي ، محكمة . فضيحة . أنا سبب الوفاة .  
وهكذا أعدد طبيباً ، بل أصبحت انساناً مسؤولاً مرمياً عن ظهر السفينة  
أو على الأصح كنت إنساناً .

---

لم يظهر الجندي ، اكتأبت ، جفت اللقافة وصدنت في درج طاولة  
المكتب .

كان عليّ أن أسافر إلى مركز القضاء خلال أسبوع كي أقبض روائب  
العاملين في المشفى . وسافرت بعد خمسة أيام إلى المركز . ذهبت إلى  
طبيب مشفى المدينة قبل كل شيء . كان امرأة ذا لحية صفراء من آثار  
الدخان ، يعمل منذ خمس وعشرين سنة في المشفى . لقد حنكه الدهر .  
جلست عنده مساء في غرفة المكتب . أخذت أشرب الشاي بالليمون  
مكتئباً وانكس باظفاري فطاء الطاولة ، لكنني لم استطع صبراً فشرعت  
أحدثه موارباً ، وبطريقة ضبابية كاذبة : ... يحدث أحياناً أن ...  
بالطبع إذا حاول أحدهم أن يقلع سنّاً ... وكسر الفك ... قد يحدث  
أحياناً غنغرينا ليس كذلك ... اتعرفون قطعة من الـ ... لقد قرأت .

كان هو يسمع ، ويسمع محملاً نحوي بعينيه الباهتتي اللون اللتين  
يعلوهما حاجبان كثان .. وفجأة قال ما يلي :

— هذا أنت إذاً من كسر له الهلّيتل ... ستصبح قالع أضراس  
ممتازاً . دع الشاي وهيا بنا نشرب الفودكا قبل العشاء .

ومنذ تلك اللحظة ذهب معلمي ( الجندي ) من رأسي إلى الأبد .

آه ، يا امرأة الدكرى . مضى عام . كم هو مضحك أن أتذكر ذلك  
الهلّيتل . أنا ، في الحقيقة لن أفلح في يوم من الأيام الأسنان كما يفعل  
ديميان لوكيتنس . بالتأكيد فهو يقلع يومياً قرابة خمس قطع ، أما أنا

فمرة خلال اسبوعين ، وأقلع فيها سناً واحداً . لكنني على كل حال أقلع  
الأسنان كما يتمنى الكثيرون . كما أنني لم أعد أكرس الأهلّة ، وإذا ما  
حدث وكسرتها فلا أخاف .

---

دعنا من الأسنان فهي لا شيء مقارنة مع ما شاهدته وفعلته خلال  
هذا العام الذي لا مثيل له .

تسرب المساء الى الغرفة ، وأضاء المصباح ، وجلست أجمل النتائج  
سابقاً في دخان السجائر المر . كان قلبي طافحاً بالاعتزاز . لقد قمت  
بعمليتي بتر فخذ . بتر الأصابع لا أعده ذا شأن أما الإجهاضات فهي  
سجلت عندي نمائني عشرة مرة . أما عمليات الفتق وشق الثرغامي فقد  
قمت بها وانتهت بنجاح ! وما أكثر الخزرجات العملاقة التي فقاتها !  
وكم مرة شددت الأربطة على الأرجل المكسورة ، وكم مرة جبرتها برباطات  
الجبس ! وكم مرة فومت الخلع الولادي . وكم مرة أدخلت الاتاييب في  
الأعضاء الجوفاء ! والولادات ! تعالين أيتها الأمهات تعالين فمهما كانت  
الولادات ، لن أجري عمليات فيصرية أبداً . هذا فول صدق . من  
الممكن أن أرسل المالحض الى المدينة . أما اذا احتاج الأمر الى استخدام  
الملاقط وإجراء التحويل فلا بأس ساجريها مهما كانت .

أذكر الامتحان النخرج الأخير في مادة الطب الشرعي وأذكر البروفيسور  
عندما قال

— حدثني عن الجروح التي يحدثها طلق ناري عن قرب .

أخذت أحدث دون تكلف ، وتحدثت طويلاً . . . كانت تسبح في  
مخيلتي أوراق الكتاب الجامعي السميكة . وفي النهاية تقدمت قواي .  
فنظر البروفيسور إليّ بتقزز ثم قلل بصوت حاد :

— لا شيء مما قلته يمكن أن يحدث في حالات الجراح الناتجة عن  
قرب . كم مرة تلت علامة « خمسة » ؟

فاجبته :

— خمس عشرة مرة .

فوضع مقابل كنيستي علامة ثلاثة ، وخرجت طريداً مفضوحاً ...

خرجت ، وسافرت بعدها سريعاً إلى موريفسك ، وها أنا هنا  
لوحدي . الشيطان وحده يعلم ماذا يحدث في حالات الجراح الناتجة عن  
طلق ناوي عن قرب . لكن ، هل أربكت يا ترى عندما تعدد هنا أمامي  
عنى طاولة الجراحة رجل كان يَخْرُجُ من شفتيه زيد كالفقاعات ، أحمر  
بسبب الاختلاط بالدم ؟ علماً أن صدره كله كان قد مزقه اللدب ، حتى  
بدت الرئتان بوضوح وتعلق لحم صدره مزقاً . هل أربكت يا ترى ؟  
وخلال نصف شهر خرج من مشفاي حياً معافى . أيام الجامعة لم أتشرف  
مرة واحدة بإمسك ملاقط التوليد الجراحية بيدي ، أما هنا ، فصحيح  
أنني استخدمها بارتجاف ، لكنني استخدمتها خلال دقيقة واحدة .  
لا أخفي أنني استقبلت ولداً عجيباً فقد كان نطف رأسه منتفخاً أزرق  
قرمزي ، أعور ، لقد ارتجفت خوفاً . وسمعت باضطراب كلمات بيلاجيا  
إيفانوفنا المواسية :

— لا بأس يا دكتور ، يبدو أنك وضعت الملقط في عينه .

لقد ارتجفت يومين متواصلين ، لكن بعد ذلك عاد الرأس إلى  
طبيعته .

ما أكثر الجروح التي خطتها ! وما أكثر التهابات البلور القيقحية  
التي رايتها وفصح الضلوع على الرغم من ذلك ! ما أكثر الالتهابات



الرثوبة والاذنية ، والسرطانات ، والسفلس ، والفتوق ( وعالجتها ) ،  
والباسور ، والأورام اللحمية ! ! . . . .

فتحت سجل المرضى وأخذت اقلب الصفحات بإلهام . واحصيت .  
خلال عام ، وحتى هذه اللحظة المسائية ، عالج ( ١٥٦١٢ ) مريضاً ،  
وبلغ عدد المرضى الذين أقاموا في المستشفى ( ٢٠٠ ) مريض ، ومات  
( ٦١ ) فقط .

أغلقت السجل وذهبت للنوم ؛ تمددت على السرير وأغمضت عيني  
وأنا أفكر بأن تجربتي قد أصبحت هائلة . فما الذي يخيفني ؟ لا شيء .  
لقد أخرجت حبة الحمص من أذن طفل ، وأجريت أعمالاً جراحية  
كثيرة . . . . يدي الرجولية لم تعد ترتجف . لقد رأيت كثيراً من المخدرات  
وتعلمت أن أفهم أساليبهن النسائية التي لا يفهمها أحد . لقد أصبحت  
أميز فيما بينهن كما يميز شارلوك هولمز الوثائق السرية . . . لحظة النوم  
تقرب . . . « أنا - ومدمت وأنا أنام - أنا لا أتصور أنه يمكن أن يأتوني  
بحالة تستلجع أن تضعني في مأزق . . . هناك في العاصمة سيقولون .  
أو يحتمل أن يقولوا : هذه أعمال يقوم بها مساعدو الأطباء . . . . .  
لا بأس فحياتهم مريحة . . . في العبادات والجامعات . . . في غرف  
التصوير السبعاعي . . . أما أنا فهنا . . . كل يوم . . . كل الفلاحين  
لا يستطيعون العيس بدوني . . . أه كيف كنت أرتجف سابقاً عندما  
يفزع الباب . . . وكيف كانت أفكارى تتسبج من الخوف . . .  
أما الآن . . . » .

---

— متى حدث هذا ؟

— منذ أسبوع با أبانا (\*) ، منذ أسبوع ، عزيزي . . . لقد  
انتفخت .

---

(\*) نزل من النداء في اللغة الروسية يهدف إلى التحجب والاحترام معا .

وشرعت المرأة تبكي .

أطلّ الصبح الغائم التشريني ، وهو أول صباح في عامي الثاني .  
فالبارحة مساء فقط اعتززت وافتخرت ... وأنا أنام ، واليوم أقف في  
ردائي الأبيض حائرة أحملق .

كانت المرأة تحمل بين يديها طفلاً ابن عام واحد . تحمله وكأنه  
حطبة .

لم يكن للطفل عين يسرى . وقد نثت من مكان العين ، من تحت  
جفنيه الرقيقين المرسلين كرة الصفراء اللون بحجم تفاحة صغيرة .  
كان الولد يبكي من الألم ويضرب بيديه وكانت الأم تشكو منتحبه . وهنا  
حرت في أمري .

قلبت للطفل وفحصته من جميع الجوانب ، كان ديميان لوكيتش  
والمرضة يقفان خلفي ساكتين إذ لم يريا مثل هذا من قبل .

« ماذا يمكن أن يكون هذا ؟ فتق دماغى ... هم ... مازال  
حياً ... ورم لحمي ... هم ... بسيط ... ياله من ورم عجيب  
ومرعب ! ... من أين نما ... أمن العين التي كانت ... ؟ من المحتمل  
أن هذه العين لم تكن موجودة في يوم من الأيام ... على كل حال هي  
الآن غير موجودة ... » .

قلت لها وقد تلبسني الإلهام :

— لا بد من شق هذا الذي ...

وهنا تصورت نفسي وأنا أشق الجفن كي أشكل فتحة كبيرة بين  
جزاياه ....

« وماذا بعد ذلك ؟ من المحتمل أن يكون الورم ناتجاً عن الدماغ  
فعلياً ... اللعنة ... الشيطان ... بسيط ... يشبه أن يكون  
دماغياً ... » .

سألت الام وقد امتنع لونها .

— ماذا تشق ؟ اتشق العين ؟ لا أوافق .

واخذت مرتبة تلف ابنها باللقافة .

فاجبتها إجابة قطعية حازمة :

— لا توجد عين عنده من الأساس . انظري اين يمكن أن تكون هذه  
العين ؟ عند ابنك يوجد ورم عجيب ..

فقالت الام خائفة :

— أعطه قطرة .

— ماذا تهزئين ؟ أية قطرة ؟ لا يوجد قطرة يمكن أن تساعطني في  
مثل هذه الحالة .

— وماذا ؟ ايمكن أن يبقى بلا عين ؟

— لا يوجد عين لقد قلت لك .

فاجابت الام بأسى :

— لكنها كانت موجودة حتى يومه الثالث من بدء الورم .

« اللعنة ... »

- لا اعرف ، من الممكن انها كانت موجودة ... تبا للشيطان ...  
لكنها الآن غير موجودة ... اتعرفين . على كل حال ، الافضل ان تأخذي  
ابنك إلى المدينة ، وبسرعة شديدة ، هناك سيجرون له عملية  
جراحية ... اليس كذلك يا ديميان لو كيتش ؟

اجاب مساعدي وهو يفكر بعمق . وكان واضحاً انه لا يعرف ما يمكن  
ان يفعله :

- نعم ، هم ... ورم عجيب .

سالت المرأة مدعورة :

- سيستقونها في المدينة ؟ لن ادعهم يفعلون .

وانتهى الامر بان اخذت المرأة ابنها دون ان تسمح لاحد ان يلمس  
عينه .

لقد اتعبت واسي يومين متواصلين وانا اهزّ كتفي ، وانقب في المكتبة،  
ممعنا النظر في الرسوم التي يظهر عليها أطفال خرجت مكان عيونهم  
حوصلات ... اللعنة

بعد مرور يومين نسيت الطفل تماماً .



مرّ اسبوع .

- لتدخل أناجوكوفا . صحت بصوت عال .

دخلت المرأة مريجة تحمل بين يديها طفلاً .

سالت سؤالي المعتاد :

— ما الامر ؟

انقبض قلبي وكدت اختنق بينما شرعت تخبرني ، والسبب  
ما ابتسمت ابتسامة ساخرة .

كانت تتحدث بنبرة صوت جعلتني ارتعش .

سالتني المرأة بسخرية واضحة :

— هل عرفته ؟

— فف . . . فف . . . آه نعم . . . قف . . . هذا هو الطفل نفسه .

— نعم هو نفسه . اتذكر يا سيدي الدكتور ، لقد قلت إنه لا توجد  
عين ولا بد من الجراحة بفية . . .

شدت لهذا . ونظرت المرأة نحوي نظرة احتقار ، يلعب في عنينا  
الضحك .

جلس الطفل بين يديها صامتا ينظر الى الضوء بعينيه الشهلأوين .  
لم يكن ثمة وجود لأي حوصصل أصفر في العين .

قلت في نفسي وقد أخذ الوهن مني كل ما أخذ « هذا شيء من  
السحر . . . » .

فيما بعد ، وحين تماثلت نفسي ، رفعت جفن الطفل بحذر . فبكى  
الطفل وحاول أن يدير رأسه ، لكنني مع ذلك رأيت . . . ندأ صغيرا  
جدا على غشاء العين . . . آ . . . آ . . .

— فور أن خرجنا من عندك وقتذاك . . . حتى انقفا . .

فقلت لها مرتبكا :

— لا ضرورة للشرح أيتها المرآة . لا تقعي عليّ . . . لقد فهمت كل شيء .

— كنت تقول لا يوجد عين . . . . . هي اتّمت بسرعة إذا ؟ ثم ضحكت باستهزاء .

« ليأخذني الشيطان . . لقد فهمت . . . لقد ظهر في جفنه الأسفل خراج ضخم ، وكبر بسرعة حتى زاحم العين ، وغطى عليه تماماً . . . فيما بعد ، عندما انفقأ الخراج ، وخرج القيح . . . عاد كل شيء إلى مكانه . . . » .

\* \* \*

لا ، لن أقول بعد اليوم أبداً إنني أعرف كل شيء ، وإن شيئاً ما لن يدهسنني . لن أقول ذلك ، حتى وأنا أنام . يومرّ عام ، وسينقضي عام آخر سيكون غنياً بالمفاجآت إلى حدّ كبير ، مثله مثل الأول . . . هذا يعني أنني يجب أن اتعلم دون غرور .

\* \* \*

## الفهرس

٥	مقدمة
١٥	الحنجرة الحديدية
٢٩	التمعيد بالتحويل
٤٥	العاصفة الثلجية
٦٥	العتمة المصرية
٨٣	الطقح النجومى
١٠٧	المنسفة ذات الديك
١٢٧	المن المفقودة





1994/12/15 20.0





تجاوز اسم ميخائيل بولغاكوف الحدود كلها عندما ترجمت روايته (المعلم ومرغريتا) الى الفرنسية، فالانكليزية، فاليغية اللغات الحية .

لم تنشر في الاتحاد السوفيتي بالروسية الا في اواخر الثمانينات . ثم نشرت في الاتحاد السوفيتي أيضا باللغة العربية ، ترجمة يوسف الخلاق التي كانت قد نشرتها وزارة الثقافة بدمشق .

من مفارقات ميخائيل بولغاكوف انه اكتشف موهبته الأدبية وهو تمارس مهنة الطب . في أوكرانيا نهاية الحرب العالمية الأولى ومع أن ستالين أعجب بمسرحياته وبشهادته أكثر من مرة . فقد منع نشر مؤلفات بولغاكوف في الاتحاد السوفيتي لسبب بسيط ومقنع اذ ذلك ، وهو أنها تقول ما يجب أن يقوله كل كاتب حر . ولم يعد الى الوظيفة التي كانت مصدر عيشه الا بأمر من ستالين .

الكتاب الذي تنشره الوزارة اليوم في ترجمة وتقديم جدين ، يقدم لقراءنا لوحة بعدة صور عن الوضع الاجتماعي البائس للإنسان الأوكراني - والروسي أيضا - وبخاصة بعد حرب طاحنة كادت تدمر روسيا القيصريّة . وهزيمة القيصريّة كانت من جملة العوامل التي جعلت شعوب الامبراطورية القيصريّة تستسلم للثورة الشيوعية وتسهم في انجاحها .

القصص هذه ، وبالإضافة الى ما تقدم ، تدل على أن عبقرية بولغاكوف الأدبية ولدت أكاد أقول ، كاملة مع أوائل أعماله الأدبية .

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

في الاصدار المبرمج مايعادل

٢٠٠ ل.س

سرايا داحل القطر

١٠٠ ل.س